# توماس هوبز وفلسفته السياسية

## دراسة تحليلية لفلسفته السياسية ونظريته في الحكم

**م. د. سعد محمد علي حميد**

**الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية**

Saadli2009@yahoo.com

**(مُلَخَّصُ البَحث)**

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لتوضيح وتفسير نظرية هوبز في العقد الاجتماعي وكيفية اقامة الحكم المطلق على اساس منفعة الأفراد مبينة التسلسل المنطقي لنظريته التي تعتمد على السببية والمنهج التحليلي والاستنتاجات النهائية التي توصل اليها. واعتمدنا في هذه الدراسة على النهج التاريخي لرصد هذا الواقع الذي عاش فيه هذا المفكر، والذي اثر على الاتجاهات الفكرية، ثم المنهج الوصفي لبيان وتوضيح الظواهر السياسية التي عالجها هوبز في نظريته، وبعد ذلك انتقلنا الى المنهج التحليلي للوقوف على اهم الافكار والاستنتاجات التي جاءت بها نظريته.

احتوت الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث واستنتاج وخاتمة. في المبحث الاول ظروف بلده ومجتمعه، وسيرة حياته وتطوره الفكري اما المبحث الثاني فجاء مبينا لمنهجه والاساس الفلسفي لنظريته، اما المبحث الاخير فاشتمل على فلسفته وتحليل الحكم .

**الكلمات المفتاحية:** توماس هوبز، الفلسفة السياسية

**المقدمة:**

شهدت أوربا في العقود الاولى من القرن السابع عشر عملية تدريجية لتحرير الفلسفة السياسية من الارتباط باللاهوت، واضفاء الطابع العلماني على الاهتمامات الفكرية، وظهرت فكرة العصر الطبيعي مرة اخرى، هدفها تأكيد حرية ومساواة الأفراد وارجاع السلطة الى الأصل شعبي، واخذت هذه الفكرة اتجاهين، اتجاه متفائل ينطلق من ان العصر الطبيعي امتاز بالبساطة والفضيلة والانسان كان يعيش في سعادة وان قيام الدولة قضى على هذه السعادة، بينما الاتجاه المتشائم، يعتبر بأن حياة الغاب هي التي سادت المجتمع الطبيعي وأن تكوين الدولة قضى على هذه المساوئ بإيجاد القوانين المنظمة لحياة الأفراد. ثم جاءت فكرة العقد، التي هي امتداد لفكرة العصر الطبيعي، لتفسير ظاهرة الدولة والسلطة فيها. وبذلك جاء هوبز

بنظريته في العقد الاجتماعي، ليضيف اسهاما جديدا في الفكر السياسي والفلسفة السياسية. وجاء كتابه (ليفياثان) ليجسد فلسفته وافكاره السياسية في الدولة التي تحمي الضعفاء من اعتداء الاقوياء والمنظمات الوسيطة . وقد يظهر هوبز بأنه حامل لواء الفردية والاطلاقية، لكنه لم يدافع عن نظام الحكم المطلق بالاعتماد على نظرية الحق الالهي التي لا تقوم بنظره على العقل والمنطق، بل دافع عن هذا النظام مستندا على نظرية القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي.

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لتوضيح وتفسير نظرية هوبز في العقد الاجتماعي وكيفية اقامة الحكم المطلق على اساس منفعة الافراد مبينة التسلسل المنطقي لنظريته التي تعتمد على السببية والمنهج التحليلي والاستنتاجات النهائية التي توصل اليها. واعتمدنا في هذه الدراسة على النهج التاريخي لرصد هذا الواقع الذي عاش فيه هذا المفكر، والذي اثر على الاتجاهات الفكرية، ثم المنهج الوصفي لبيان وتوضيح الظواهر السياسية التي عالجها هوبز في نظريته، وبعد ذلك انتقلنا الى المنهج التحليلي للوقوف على اهم الافكار والاستنتاجات التي جاءت بها نظريته.

احتوت الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث واستنتاج وخاتمة. في المبحث الاول ظروف بلده ومجتمعه، وسيرة حياته وتطوره الفكري اما المبحث الثاني فجاء مبينا لمنهجه والاساس الفلسفي لنظريته، اما المبحث الاخير فاشتمل على فلسفته وتحليل الحكم .

**المبحث الاول: ظروف مجتمعه وسيرة حياته**

كانت للعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي احاطت بحياة هوبز منذ ولادته حتى وفاته، الأثر الكبير في تحديد طبيعته واتجاهاته الفكرية. فالقرن السابع عشر الذي عاش فيه هوبز تميز بالحروب والثورات الداخلية، فعلى الصعيد العام نشبت حرب الثلاثين عاما (١٦٤٨-١٦١٨)، هذه الحرب التي كانت اطرافها النمسا واسبانيا من جانب والمانيا وفرنسا وهولندا من جانب اخر لتنتقل الى بقية بلدان أوربا والحقت خسائر فادحة وانتهت بمعاهدة ويستيفاليا عام ١٦٤٨ ثم تبعتها الحرب الفرنسية الاسبانية واستمرت حتى عام ١٦٥٩، والتي انتهت بمعاهدة البيرنية. وعلى الصعيد الداخلي شهدت انكلترا حروبا وثورات اهلية ومؤامرات سياسية وصراعات اقتصادية وداخلية فضلا عن التناحر المذهبي وهذه الصراعات والحروب في عهد الملكة اليزابيث الاولى، هذه الحقبة التي سبقت ولادة هوبز واستمرت حتى عهد شارل الثاني، اي الفترة الزمنية التي عاصرت هوبز. هذه

الاحداث القت بظلالها على فلاسفة ذلك العصر، والفيلسوف في ذلك العصر من رجال الفكر، نسيج وحده، كيانه يعتمد على طريقته الخاصة للتجاوب مع ظروف بيئته الاجتماعية والطبيعية. واذا صدق هذا على رجال الفكر بعامة، فأنه من باب اولى ان يصدق على الفلاسفة وبينهم توماس هوبز.

**المطلب الاول : ظروف مجتمعه**

**اولا : انكلترا في عهد الملكة اليزابيث الاولى (١٥٥٨-١٦٠٣) :-**

توفيت ماري تيودور بنت هنري الثامن وزوجة فيليب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٥٨، فأنتقل العرش الانكليزي الى اختها اليزابيث وهي ابنة ان بولين الزوجة الثانية لملك انكلترا هنري الثامن. وكانت اليزابيث مستبدة في حكمها، واشتهرت بالذكاء وقوة العزيمة، واظهرت كفاءة ممتازة في الادارة والسياسة، واتبعت في حكمها السياسة الميكافلية، كما أنها أعلنت بروتستانتيتها وقوميتها الانكليزية تماشيا مع التيار المتنامي في انكلترا آنذاك. وفي فترة حكمها توترت العلاقة بينها وبين فيليب الثاني ملك اسبانيا، وذلك بسبب مساعدة الملكة اليزابيث الثوار البروتستانت في الاراضي المنخفضة ضد اسبانيا وشجعت القرصنة في البحار ومهاجمة التجارة الاسبانية، عندئذ بدا ملك اسبانيا بتدبير المكائد لها وخلعها وقتلها، مستخدما وسائل الرشوة وتدبير المؤامرات لها متفقا مع بعض الانكليز المناهضين والفرنسيين والايرلنديين على ذلك، مما انعكس سلبا على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في انكلترا آنذاك.[١]

كما ان العلاقة كانت متوترة بين انكلترا واسكتلندا بسبب سوء سياسة هنري الثامن الذي حاول ضم اسكتلندا بالقوة وفرض البروتستانتية عليها، مما ادى الى تعرض انكلترا الى خطر غزو اسكتلندي-فرنسي، لان ملكة اسكتلندا لها صلة قربى بالعائلة الملكية الفرنسية، لكن نشوب الثورة البروتستانتية في اسكتلندا وطلبهم المساعدة من ملكة انكلترا ساعد الجيش الانكليزي على التخلص من الخطر الفرنسي واصبحت اسكتلندا بروتستانتية، لكن هذا الامر جعل من ملكة انكلترا حامية البروتستانت تقف بمواجهة فرنسا واسبانيا كحماة للكاثوليك، مما ادى الى توتر العلاقات الخارجية الانكليزية في القارة الاوربية.[٢] وعلى اساس ذلك تمت تسوية الخلافات بين اسبانيا وفرنسا، ووجهت الجهود للقضاء على البروتستانتية في انكلترا وهولندا وهذا يعني بالنسبة لإنكلترا دخولها في صراعات وحروب في مواجهة التحالف الفرنسي- الاسباني.[٣] وبالمقابل وجد ملك اسبانيا انه لا يستطيع حكم هولندا وامريكا والمحافظة على الطرق التجارية، الا بالقيام بإخضاع انكلترا لحكمه،

وفي تلك الفترة كان الانكليز يهاجمون السفن الاسبانية التجارية ويسلبونها بضائعها. ولكي ملك اسبانيا من الانكليز اعد اسطولا بحريا عظيما لم يشهد العالم المسيحي مثله سابقا. تتألف الاسطول الذي يعرف باسم (الأرمادا) من (١٣٠) سفينة واكثر من (٦٠) الف مقاتل، في حملة موجهة باتجاه الشواطئ البريطانية . وكان ملك اسباني يظن ان انكلترا منقسمة على نفسها بسبب النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت، لكن العامل القومي تغلب على المعتقدات الدينية وتوحدت الجهود من اجل الدفاع على انكلترا، وبفضل مهارة البحارة الانكليز، وهبوب عاصفة بحرية قوية تحطم الاسطول الاسباني (الأرمادا) على السواحل الصخرية الاسكتلندية. وبفشل الأرمادا تحررت هولندا وزال الاحتكار الاسباني للتجارة البحرية، وكانت اول خطوة لسيادة بريطانيا على البحار فضلا عن ذلك استقرت انكلترا بعلاقاتها مع اسكتلندا وويلز وايرلندا.[٤]

**ثانيا: ثورة البيورتان ومقدمات الحروب الاهلية:**

بعد اندحار الأرمادا الاسبانية، وانحسار التهديد لإنكلترا، اصبح الانكليز اقل اهتماما بشؤون القارة الاوربية، لانشغالهم في صراعات داخلية (دينية ومذهبية) بين جماعة متطرفة من البروتستانت الكالفنيين (البيورتان)، والمعتدلين (بالانكليكان) الموالين للكنيسة الانكليزية الرسمية. طالب البيورتان بالحقوق البرلمانية في مواجهة الملكية، واقحموا الدين في الامور السياسية، واختلطت الاختلافات الدينية مع القضايا السياسية والدستورية من غير تمييز[٥]، وحصل احتدام مذهبي بين الانكليز والاسكتلنديين وبين الانكليز والايرلنديين، نتج عنه حروب دينية وطائفية لا تقل وحشية عن تلك الحروب الدينية التي شهدتها القارة الاوربية (حروب الثلاثين عاما في أوربا بين الكاثوليك والبروتستانت)، وتسبب هذا التناحر المذهبي والطائفي، فضلا عن الضائقة الاقتصادية في انكلترا في ذلك الوقت، بهجرات داخلية وخارجية كما شهدت انكلترا في ذلك الوقت ايضا صراعا سياسيا حول السلطة الملكية، للحيلولة دون ان تصبح سلطة مطلقة كباقي الدول الاوربية، والابقاء على التقاليد والحقوق الموروثة[٦]. وبعد وفاة الملكة اليزابيث عام ١٦٠٣ انتقل التاج بالوراثة الى جيمس الثالث ملك اسكتلندا واطلق عليه لقب جيمس الاول، وكان فيلسوفا للملكية المطلقة ونظرية الحق الالهي في الحكم [٧].

ومن اجل توطيد سلطته حاول ان يمنح الكاثوليك حرية العقيدة مقابل ولائهم وتأييدهم له، مما ادى بالكنيسة الانكليزية وانصارها في البرلمان الى الدخول في صراع مع الملك بسبب ان سياستها هذه تتعارض مع القانون الانكليزي العام

(القانون العرفي common low)، فتامر الكاثوليك على نسف البرلمان، ولكن المؤامرة كشفت، مما حرم على الكاثوليك الحقوق المدنية والدخول في الوظائف العامة ، وادى كذلك الى ان الكثير من الانكليز وقفوا مع البيورتان (الد اعداء البابوية) والذين اقاموا حربا على الملكية، الامر الذي جعل الملك يتعقبهم وينفيهم سنينا طويلة[٨]. وفضلا عن ذلك كان الانكليز يعتبرون الملك اجنبيا، فقد كان اسكتلنديا، تنقصه الدراية والكياسة في التعامل مع الانكليز، كما انه لم يهتم بمطاليب البرلمان، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى، استاء الانكليز من سياسته الخارجية وخصوصا فيما يتعلق بتنمية العلاقة مع اسبانيا الكاثوليكية متجاهلا العداء الذي بينهما، وبذلك زاد الخلاف بين البرلمان والملك حتى وفاته عام١٦٢٥[٩]. لقد كان البرلمان في انكلترا منظما لدرجة ان كل مقاومة يقوم بها تكون مؤثرة، وكان هناك برلمان واحد يمثل البلاد باسرها وجميع المعارضة مركزة فيه، وكان لأصحاب العقارات والاراضي قوة مؤثرة داخل البرلمان واغلبيتهم من البيورتان، واما الكنيسة فلم تمثل في البرلمان كقوة منفصلة [١٠]. ولما اعتلى الملك شارل ابن جيمس الاول العرش استمت حدة الخلاف بينه وبين البرلمان فقام الملك بحل البرلمان، واصبحت قوانين الملك وأوامره هي النافذة في البلاد كما انه اراد تقوية سلطته فمال الى تقوية الكنيسة الأنغليكانية ضد البيورتان، وكذلك حاول تغيير تعاليم الكنيسة الاسكتلندية فحصلت ثورة في اسكتلندا جراء ذلك . وهكذا كان التدهور في العلاقة بين الملك والبرلمان سريعة، من حيث ان الملك كان يحكم البلاد حكما مطلقا حتى عام ١٦٤٢، بدون البرلمان وكان من نتائج ذلك قيام الحرب الاهلية في العام المذكور، وكان اطرافها الملك يساعده الكاثوليك والأنكليكان والذين كانوا متمركزين في المناطق الشمالية والغربية من انكلترا، اما الطرف الاخر فكان البرلمان الذي كان يعتمد على شرق انكلترا وجنوبها ويحظى بتأييد الطبقة البرجوازية الصاعدة ورجال الصناعة والتجارة واصحاب السفن والبيورتان والمستقلين، وفي بداية الامر حقق جيش الملك (الفرسان) انتصارات اولية، لكن ظهور اوليفر كروميل كعضو بارز في مجلس العموم الذي استطاع انشاء جيش قوي جديد فتمكن من انزال هزيمة ساحقة بجيش الملك عام ١٦٤٥، فضلا عن مساعدة الاسكتلنديين له حيث قاموا بتسليم الملك لجيش كروميل مقابل مبلغ من المال، لذلك انتهت الحرب الاهلية لأكثر من ثلاث سنوات وتم اعدام الملك عام ١٦٤٩[١١]. واعلن برلمان انكلترا جمهورية برئاسة كروميل وتحت اسم رابطة الشعوب البريطانية، التي تشمل انكلترا واسكتلندا وايرلندا والجزر الغربية المجاورة،

وقد حكم كروميل البلاد حكما فرديا دكتاتوريا معتمدا على قدرته السياسية وجيشه القوي، واعلن عام ١٦٥٣ عن رئاسته مدى الحياة لكنه توفي عام ١٦٥٨[١٢]. وبعد سنة من الفراغ السياسي طلب شارل الثاني ابن الملك شارل الاول العودة الى عرش البلاد، وفعلا تم ذلك للأعوام(١٦٦٠-١٦٨٥) وهكذا رجعت اسرة ستيورات للحكم. وقد تميز حكم شارل الثاني بظهور المسألة الدينية من جديد وقيام الصراع بين الكنيسة الانغليكية وبين البيورتان ، وكان البرلمان هذه المرة من انصار الكنيسة الأنغليكانية، فحرم البيورتان من تقلد الوظائف الحكومية [١٣]. وبذلك حصل انشقاق داخل البرلمان بين البيورتان وجماعة الكنيسة الانغليكانية ، كما حدث صراع بين البرلمان من جانب الملك الذي يساند الكاثوليك من جانب اخر، فوقف البرلمان بوجه الملك وحصل على امتيازات مهمة انتزعها من صلاحيات الملك من حيث عدم قدرة الملك على حل البرلمان وانما ذلك من حق مجلس العموم فقط، وبذلك اصبح في البلد سيدين في ان واحد يتقاسمان السيادة فدخلت البلاد هذه المرة في صراع على السلطة والسيادة، واصبحت الثورة والحرب الاهلية لا مفر منها [١٤] .

**ثالثا : على الصعيد الاوربي :**

كان الوضع في أوربا بشكل عام في نهاية القرن السادس عشر وعلى امتداد القرن السادس عشر، تحت تأثير الحرب الدينية ففي فرنسا كانت الحرب الأهلية الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، ولم تنتهي ألا بمنح البروتستانت امتيازات بموجب مرسوم نانت عام ١٥٩٨ وكما اشرنا سابقا انتهى الصراع بين انكلترا واسبانيا في معركه الأرمادا عام ١٥٨٨ اما هولندا فدخلت في حروب مع اسبانيا وانتهت بهدنه عام ١٦٠٩ ولمدة (١٢)عام، وقبل ان تنتهي الهدنه اندلعت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨- ١٦٤٨) [١٥].وهكذا عاشت أوربا ازمه خطيرة ، وحروبا طاحنه شارك فيها كل دول أوربا الوسطى والغربية حتى دول شمال أوربا، فقد بدأت هذه الحروب في المانيا ولأسباب دينيه، تبعتها ثورة فام بها البروتستانت في بوهيما (الجيك) ضد الإمبراطور الكاثوليكي، وهي كانت في الواقع موجهة ضد اطماع الاسرة النمساوية الحاكمة التي ارادت تحويل الامبراطورية الانتخابية الاتحادية الألمانية، الى دوله مركزيه وراثيه، وانتهت الحرب بمعاهدة ويستيفاليا عام ١٦٤٨[١٦] . كما شهدت أوربا حروب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، عندما اكد على حدود فرنسا الطبيعية (جبال وانهار وبحيرات)، ولما كانت فرنسا في الزمن القديم محاطة بحدود طبيعية، وهي جبال الالب والبرانس ونهر الراين والمحيط الاطلسي، فيجب على فرنسا استعادة تلك الاراضي التي انسلخت عن فرنسا

ضمن هذه الحدود . ولتحقيق هذه الغاية خاض لويس الربع عشر حروبا ثلاثة ، مع اسبانيا (١٦٦٧-١٦٦٨)، وحرب ضد هولندا (١٦٧٢-١٦٧٨)، وحربا ثالثه ضد عصبة اوكسبرغ (١٦٨٩-١٦٩٨)[١٧].

وهكذا كان الحكم المطلق وحق الملوك الإلهي، هو الذي يهمين على الدول الاوربية في تلك الحقبة، وكان لرجال الدين منزلة كبيرة في المجتمع، والنبلاء يشغلون مناصب رفيعة في الدولة، اما الطبقة البرجوازية فكانت لا تزال تكافح من اجل المساواة في الحقوق . فضلا عن اهمية الجيش والقوة العسكرية للدولة التي بالتغير. تلك الحقبة، فكانت الحروب عديدة ومستمرة وهي تلك السمة المميزة للعلاقات الدولية آنذاك، بينما كانت فترات السلم قصيرة، واضحت الحرب عبء ثقيل على كاهل الطبقة الوسطى والفقيرة ،من حيث ان عبء الضرائب يقع على هاتين الطبقتين وخصوصا الفلاحين، دون الحصول إلى ما يشير إلى تحسين احوالهم، الامر الذي ادى اتساع الهوة بين الاغنياء من النبلاء اصحاب الاراضي والذين كانوا معفيين من الضرائب، وبين الفلاحين والفقراء والذين كانوا يمثلون ثلثه ارباع سكان أوربا في ذلك الوقت . فضلا عن ذلك لم تكن هناك قوة شعبيه تستطيع القيام بالتغير. اذ لم يهتم اصحاب السلطة السياسية بالرأي العام وقوة الجماهير ،ولم تكن الجماهير عبارة عن قوة ثوريه، بل رضوا بنصيبهم في الحياة وان لكل طبقه دورا في الحياة الاجتماعية، ونصيب النبلاء هو الادارة السياسية ونصيب الفلاحين زراعة الاراضي. ولما كان الوضع السياسي والفكري مفقودا تقريبا بين الجماهير الفلاحية ،لم يهتم هؤلاء بالتيار السياسي او الفكري السائد في أوربا، ولم يقوموا بحركة مهمه لتحسين احوالهم المعيشية. غيران بعض الدول الأوربية تشذ عن هذه القاعدة. ففي انكلترا كان لنمو الرأسمالية وتجارة الصوف اثر كبير في القضاء على الاقطاعية، واصبح الفلاحون عمالا زراعيين بعد توحيد المقاطعات الصغيرة لتكوين المراعي، وقسم منهم ذهب إلى المدن ليشتغل في المعامل الصغيرة التي بدأت تظهر هذا الوقت في انكلترا[١٨].

ومن خلال ذلك ،يمكننا القول إن الوضع الذي شهدته أوربا بشكل عام ، من حروب بين الدول وحروب دينية ومذهبية، كذلك مسألة الحكم المطلق والحق الإلهي للملوك في الحكم، والامتيازات التي يتمتع بها النبلاء ورجال الاقطاع، وبدايات نمو الطبقة البرجوازية التي كانت في كفاح مرير مع الطبقات العليا اقتصاديا واجتماعيا فضلا عن عبء الضرائب التي تحملها الفقراء من الفلاحين، كل ذلك قد اثر على اتجاهات الفكر السياسي في تلك الحقبة الزمنية، فشهد القرن السابع عشر افكارا

سياسيه تؤكد على الانتقال من انماط الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور الوسطى، الى انماط جديدة في الحياة فكريا وعمليا والتي عرفت بالحداثة . اما في انكلترا بشكل خاص، فكان لتداخل الخارطة الاجتماعية والخارطة الاقتصادية والخارطة الدينية مع الخارطة السياسية، له الاثر الكبير في الحياة وتفكير المجتمع وقتذاك .فما شهدته انكلترا من مؤامرات سياسيه على العرش، ودخولها في حرب مع اسبانيا، وحروب دينية ومذهبية بين المعتدلين والمتطرفين، فضلا عن الوضع الاقتصادي، كل هذه الامور اثرت في سير العملية السياسية وظهور مرحلة عدم الاستقرار السياسي في البلاد، من حيث تنامي الصراع على السيادة والحكم والكلمة الاخيرة ما بين الملك ورجال البلاط من ناحية، مستندين على نظرية الحق الالهي والحكم المطلق، وما بين البرلمان من ناحية اخرى، الذي تزعم مجلس العموم فيه بعض الرجال المتطرفين في المسائل الدينية والاجتماعية، وبغرض الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية ادى بهم الى التطرف السياسي والوقوف بوجه الملكية الحاكمة، وكان ذلك الموقف يعتبر تجاوزا على التقاليد والاعراف السائدة في تلك الحقبة في انكلترا. هذه الاحداث ادت الى حرب اهلية طاحنة ترجع اسبابها الى الانقسام الديني والمذهبي الذي راح يغذي الانقسامات الاخرى وهي الاجتماعية واقتصادية لتنعكس على الحياة السياسية في البلاد، هذا التطاحن استمر لمدة ٥٠ عاما، قد ولد حالة من الخوف والذعر لدى الشعب، وحالة من عدم الشعور بالأمان والخوف من الموت وعدم استقرار الحياة السياسية. فمسائلة الثاني: لحكومة السيطرة على مجرى الامور، وتنافس على السيادة بين الملك الذي يصدر الاوامر القطعية والعليا، متمسكا بالحق المطلق ومتغاضيا عن مطاليب الشعب ومتجاهلا لاهتماماته، وبين البرلمان الذي اعلن كراهيته للملك، واعتناق معظم زعمائه لمذهب ديني متطرف، محاولين عدم الانصياع لأوامر الملك، ويعملون على اظهار عيوب الحكم، ولم يكن هذا البرلمان ممثلا لجميع طبقات الشعب وفئاته مما ادى ذلك الامر الى ارتداد الشعب الى الوراء والخندق في مجالات ضيقة، مذهبية وفئوية وجهوية، مما زاد من حالة الغليان الحرب الاهلية وتفكك الاواصر والروابط الاجتماعية لذلك الشعب في تلك المرحلة، والعيش في حالة من القسوة والانانية والعدائية وهي حالة حرب الفرد ضد الفرد وحالة حرب الجميع ضد الجميع.

**المطلب الثاني : سيرة حياته وتطوره الفكري**

كان توماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨-١٦٧٩) من معاصري الثورة البرجوازية الانكليزية، التي فتحت عهدا جديدا في تاريخ انكلترا. وعلى الغم من ان الثورة سرعان ما انتكست، فان الرجوع الى الماضي الاقطاعي لم يكن ليستمر طويلا. فقد تدعم مواقع البرجوازية، فراحت تطور ايديولوجية معادية للإقطاع . وفي تلك الحقبة كان النضال الثوري يجري تحت راية النزعة الدينية البروتستانتية[١٩]. كما تميزت حياة انكلترا الفكرية في ذلك العهد الذي لعبيه فئة طليعية من الارستقراطية ، بدأت تربط مصيرها بالبرجوازية الفتية الصاعدة، وكان منظروها يرون ان المعرفة النموذجية المثلى هي معرفة العلوم التي تستخدم في المنافع العملية . وفي خضم الصراع ضد الايدلوجية الاقطاعية انبرى مفكرو البرجوازية لطرح المسائل المتعلقة بالدين والتسامح الديني والقانون (الحق)، وعملوا على تفسير ظهور المجتمع والدولة انطلاقا من قوانين الطبيعة البشرية وسماتها. وكان هؤلاء يعتبرون الطبيعة البشرية نتاجا للعالم الخارجي، فسحبوا فهمهم الميكانيكي لظواهر الطبيعة ليشمل الحياة الاجتماعية ايضا[٢٠]. هذه الاتجاهات والنزاعات كلها انعكست بصورة جلية في فلسفة توماس هوبز . ولد هوبز في ١٥٨٨/٤/٥، في ويست بورت (west port) المجاورة الى مدينة مالميسبوري (Malmesbury) في مقاطعة ولتشاير (Wiltshire)[٢١]. ولقد صادف قبل ولادته ان وجه ملك اسبانيا اسطوله الأرمادا ليقهر به انكلترا، وفي هذا الجو الحربي المتوتر سيطر الخوف على والدة هوبز التي كانت حاملا به فوضعته (وهو الطفل الثاني لها) قبل اوانه، (كان وليد لسبعة اشهر) مما دفع هوبز فيما بعد بأن يردد عبارته الشهيرة (( انا واخوف تؤمان)) [٢٢]. كان والده قسيسا لكنه كان ذا طبع وسلوك تقترنان بخصال نميمة، ابرزها الجهل والفظاظة والطيش وسرعة الغضب، ومات في ظروف غامضة تاركا ابنائه الثلاثة في رعاية شقيقه فرانس هوبز، وكان ذلك من حسن حظ توماس هوبز لان عمه كان غنيا وطيب السمعة، راجح العقل. وقد عاش هوبز طفولة هادئة، وعندما بلغ الرابعة من عمره التحق بمدرسة كنيسة ويست بورت، وبدا في عامه السادس يتلقى دروسا في الاغريقية والاتينية، ثم التحق بمدرسة خاصة وتسنى له ان يحظى بمعرفة واقعية بالكلاسيكيات (الادب والتاريخ) وان يطلع على اولى الروافد الفكرية لثقافته، وقد ابدى تفوقا ملحوظا في ذلك وترسخت في ذهنه دعائم اللغتين الاغريقية والاتينية[٢٣]. وفي سن الخامس عشرة اي في عام ١٦٠٣ وارسله عمه الى كلية ماجدلين في اكسفورد

(Magdalen Hall Oxford)، فأتم دراسته في شباط عام ١٦٠٨[٢٤]. وكانت الجامعة ايامه تجتاحها اتجاهات ونزاعات متضاربة و فمن ناحية كانت التقاليد البيورتانية المتزمتة ضاربة بجذورها بالجامعة، ومن ناحية اخرى كان السكر والعربدة والقمار وغيرها منتشرا فيها الى حد كبير. اما من حيث المستوى الدراسي والعلمي فقد كان الفكر الارسطي مهيمنا على الجامعة، ووصلت مستويات الدراسة الى اقصى درجات التدهور ولن يبد هوبز سوى قدر ضئيل من الاهتمام بالفلسفة التي كانت تدرس في الجامعة[٢٥] كما كانت المناقشات في الجامعة لا تنتهي حول سلطات الملك، وحقوق وضمير الفردي، وتفسير التوراة الذي لم يكف البيورتان (الطهريون) على الاستناد له، ضد الكنيسة القائمة هذه المناقشات كانت تثير في نفسه رعبا عميقا، لأنها كانت تقوض السلطة وتؤدي حسب رؤيته الى الحرب الاهلية [٢٦].

وبعد تخرجه من الكلية وحصوله على شهادة البكالوريوس، زكاه عميد كليته ليصبح معلما خاصا لوليم كافندش (Cavendish) الذي اصبح ايرل ديفونشاير اي ايرل نيوكاسل (Earl of Newcastel) وبدأت علاقته مع هذه الاسرة الاميرية واستمرت حتى اخر عمره وذهب مع تلميذه الى رحلات في اوروبا التي اتاحت له تكريس اهتماماته للدراسات الكلاسيكية [٢٧]. لقد كان لعمله وعلاقته مع هذه العائلة الاثر الكبير في تطوره الفكري ، فقد تهيأت له فرصة التعرف على نخبة من مشاهير رجالات عصره من ذوي الثقافة الرفيعة سواء في السياسة والأدب والعلم فضلا عن امتلاك هذه العائلة لمكتبة عامرة كانت تحت تصرفه مما اتاح له الفرصة لمطالعة المئات من الكتب لإغناء معرفته وكذلك اتاحت له هذه العائلة فرصة الذهاب الى الدول الاوربية مثل فرنسا وسويسرا وايطاليا والمانيا مما ادى الى انفتاح ذهنه على معالم الحياة الفكرية في القارة الاوربية [٢٨]. فقد تأكد له من رحلاته الى أوربا عدم جدوى التعليم القديم القائم على الفكر الارسطي، وتدعم هذا الراي عنه بعد التعرف على كليبلر وغاليلو وفرانسس بيكون والاطلاع على انجازاتهم، كما ترجم كتاب ثيوسيدس عن حرب البيلوبنيزية (Peloponnesian) بين اثينا واسبارطة، لعل قومه يستشهدون بالتاريخ ويلتمسون فيه العظة باخطار الديمقراطية . اذ كانت انكلترا مشرفة على حرب اهلية، يمزقها الجدل بين انصار مبدئ الامة مصدر السلطات ، وبين انصار حق الملك الالهي في الحكم[٢٩]. وفي احدى رحلاته الاوربية عام ١٦٢٩، الى فرنسا وسويسرا طرا انعطاف في تطوره الفكري، فقد تحول اهتمامه من دراسة الكلاسيكيات الى دراسة الفلسفة والعلم. فقد اطلع بالصدفة في احدى مكتبات جنيف على كتاب الاصول للمؤلف اوقليدس وقد الهبته الطريقة الاستنتاجية التي عرض فيه اوقليدس افكاره، فأثارت اعجابه واراد تطبيقها على شتى مجالات

المعرفة، وخصوصا في المجالات التي تتركز فيها اهتمامات غالبية البشر، وتكثر فيها اسباب الشقاق والخلاف بينهم . كما كانت لصدفة اخرة في هذه الرحلة، هو حضوره لمناقشة لمجموعة من العلماء في موضوع سبب الاحساس (The causes of sensation)، ووجد في حينها انه لم يكن احد على معرفة بماهية الاحساس، الامر الذي اثار اهتمامه وشغل تفكيره بمشكلة سبب الاحساس وطبيعته[٣٠]. وفي عام ١٦٣٧، اختمرت في ذهن هوبز فكرة صياغة نظام فلسفي متكامل، وكان يعتزم وضعه في ثلاثة اجزاء، ويعالج فيه وبالترتيب كل ما يتصل بالجسم المادي، والجسم الانساني، والجسم المصطنع المركب من اجتماع الافراد (الدولة). فقام باعداد القسم الاول (في الجسم)، لكن الاحداث التي شهدتها بلاده آنذاك ، جعلته يؤجل تنفيذ مخططه لبناء نظامه الفلسفي كي يكرس جهوده لمعالجة أوضاع بلاده. واسفرت جهوده عن نشر كتابه (مبادئ القانون الطبيعي والسياسي)، والثاني بعنوان (الهيئة السياسية)، ويمثل الكتاب الاخير مخططا لنظريته الجديدة ومحاولة منسقة لاستخدام طريقته الهندسية وعلم النفس الميكانيكي في عرض الحقائق الكامنة وراء الخلافات الناشئة آنذاك[٣١]. ان ظهور هذا الكتاب، كان له الاثر في اغضاب الطرفين المتنازعين في بلاده .فقد كانت هناك حملة شديدة من قبل البرلمان على امتيازات الملكية، وجاء رأي هوبز هو ان الانتقاص من هذه الامتيازات سوف يعكر صفو السلام في البلاد، وان هذه الامتيازات من حقوق السيادة، وان السيادة للملك، وبذلك اغضب البرلمان بدعوته للملكية المطلقة، ومن جانب اخر اغضب الجانب الملكي من خلال رأيه بأن هذه السيادة تكون على اساس عقد اجتماعي[٣٢] (أي قيام حكم مطلق بموافقة الشعب بموجب العقد وليس على اساس نظرية الحق الالهي)، من حيث ان الملكية المطلقة القائمة على اساس العقد الاجتماعي تبتعد عن المنازعات الحزبية وفوضى الديمقراطية التي تكرس التنابذ والتخاصم، وكان يؤيد الملكية باعتبار ان من مزاياها هو ان شخصا واحدا قد يتجاوز العدل ويسيئ الحكم (وليس من حق البرلمان وبكل اعضائه القيام بهذا التجاوز) وكان يعتبر الديمقراطية هي ارستقراطية خطابية[٣٣]. ولما امتد الصراع بين البرلمان والملك ترك هوبز بلاده واختار فرنسا منفى له، وهناك دخل في مساجلات مع ديكارت حول كتاب الاخير الذي هو بعنوان (التأملات) وحاول الرجوع الى تنفيذ مخططه في بناء نظامه الفلسفي، وقام بترجمة كتابه (في المواطن) الى الانكليزية، حيث كان قد كتبه اول مرة باللغة اللاتينية ونشره بعنوان (المبادئ الفلسفية الخاصة بالحكومة والمجتمع) والذي حاول فيه ان يبرهن بشكل حاسم عن الغرض الاساس من السلطة المدنية، ويعالج بالتفصيل العلاقة بين الكنيسة والدولة وبعد ذلك قام بصياغة نظريته في البصريات واستمر بمتابعة مخططه الفلسفي وبلورة آرائه السياسية كي ينجز

رائعته الكبر التنين (Leviathan) او مادة وصورة سلطة الجماعة (الكومنويلث) الدينية المدنية:[٣٤]

Leviathan or the matter, from,and power of a commonwealth Ecclesiastical and civil

ويعد هذا الكتاب اهم واعظم ما كتبه من حيث انه يمثل ذروة أفكاره ومعتقداته كما ان هذا الكتاب يتصل بالمرحلة التاريخية التي ظهر اثنائها ، وساهم بشكل فعال في حل المشكلات التي كانت قائمة اذاك، وما علق بمسألة طبيعة الحكم[٣٥].

وعند عودته الى بلاده، قضى الخمسينيات من القرن السابع عشر في مساجلات وانتقادات متبادلة بينه وبين الاساتذة والعلماء الموجودين في بلاده، كما دخل في جدل عنيف مع رجال الدين بعد نشره مخطوطة بعنوان ((الحرية والضرورة والصدفة)) وأوضح ان ارادة الانسان تتبع الرغبة والنفور وللأفعال مسببات تقتضيها الضرورة، وانكر مسألة الثواب والعقاب، مما أثار حفيظة رجال الدين[٣٦] .

وحين عادت الملكية الى انكلترا عام ١٦٦٠، لاقى حظوة ورعاية خاصة من قبل الملك ، وكان حضوره البلاط الملكي محل ترحيب دائما. لكن ذلك لم يدم طويلا ، لان خصومه وهم كثر واقوياء (جماعة البرلمان) ورجال الدين . فبعد تفشي وباء الطاعون في انكلترا ١٦٦٥، ونشوب حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦، سيطرت على الناس مشاعر خرافية فاخذوا يبحثون وبجد عن سبب غضب الله ونقمته عليهم، وقدمت عريضة البرلمان تطالب بمحاربة الالحاد، مع الاشارة الى كتابين كان كتاب التنين احدهما ، وتشكلت لجنة للنظر في هذا الكتاب، وغدا هوبز في حال لا يحسد عليه، وطالب عدد من الاساقفة بإحراقه بتهمة الهرطقة[٣٧]. لكن البرلمان لم يتخذ اي اجراء ضد هوبز، ويرجع ذلك الى تأثير من الملك، الا انه منع من نشر آرائه . والواقع انه لم يكف عن الكتابة، ففي عام ١٦٦٨، الف كتاب (فرس البحر) ويتحدث فيه عن اسباب الحرب الاهلية التي جرت في انكلترا وفي عامه السابع والسبعين، عكف على تأليف كتابه الموسوم ((محاورات بين فيلسوف ودارس للقوانين العامة في انكلترا)) هذا الكتاب نشر بعد وفاته عام ١٦٨١ ويمثل الكتاب هجوما على المدافعين عن القانون العام الذين يسعون الى الحد من الامتيازات الملكية. وفي حوالي الثمانين من عمره كتب سيرته الذاتية بالشعر اللاتيني عقب انتهائه من تدوينها نثرا . لقد ظل هوبز في تلك الفترة محظورا عليه نشر اي كلمة دفاعا عن نفسه فانتهز خصومه الفرصة لتشويه سمعته. ومع ذلك لم يقدر اي انكليزي من معاصريه ان يحظى بالشهرة والسمعة الطيبة التي كان يتمتع بها هوبز خارج بلاده، وكانت الشخصيات البارزة التي تحل في انكلترا تتلهف على

زيارته وإظهار اجلالها له. وفي اواخر حياته عاد الى دراسة الكلاسيكيات، فانجز في عام ١٦٧٣ ترجمته للاوديسا، ثم نشر عام ١٦٧٦ ترجمته للإلياذة. وفي عام ١٦٧٥، غادر لندن لأخر مرة ليمضي اواخر أيامه بين أفراد عائلة كافندش، وكان يمضي وقته في التأمل والمطالعة ويملي ما يخطر بباله من افكار وخواطر على سكرتيره (حيث كان مصابا منذ عامه الستين بمرض شلل الرعاش)، ولم ينقطع عن نشاطه ، بل كان في عامه الاخير ١٦٧٩، يشعر بأنه في حاجة الى المزيد من العلم والمعرفة ، وكان قد وعد احد الناشرين بان يقدم له شيئا ليتولى نشره. وفي ١٦٧٩/١٢/٤ توفي توماس هوبز في هاردويك عن واحد وتسعين عاما، ودفن في كنيسة (Hault Hucknall)[٣٨].

**المبحث الثاني : منهجه والأساس الفلسفي لنظريته**

لقد قدم هوبز فلسفته السياسية بصورة موضوعية وكان يقصد من ذلك :

١. وضع الفلسفة الاخلاقية والسياسية ، ولأول مرة، على اسس علمي.

٢. المساهمة في تأسيس سلام مدني ومودة ، وفي اعداد البشرية لكي تفي بواجباتها المدنية.

وهذان المقصدان النظري والعملي، مرتبطان ارتباطا وثيقا في ذهن هوبز.

ويربط هوبز المقصد المدني أو الحضاري ، بتراث الفلسفة السياسية الذي يرتبط باسم : سقراط، افلاطون، ارسطو، شيشرون. ومع ذلك اخفق التراث كله، كما يرى هوبز، في بحثه عن الحقيقة، وفي عجزه على ان يقود الناس نحو السلام، كما اخفق الكلاسيكيون، كما يرى مكيافيللي ، لأن هدفهم كان بعيد جدا . لانهم اقاموا مذاهبهم السياسية على أعتبارتهم لطموحات الانسان العليا، وحياة الفضيلة ولقد نظروا الى انفسهم على انهم عديمي الفائدة وكما يقول بيكون، لقد سنوا((قوانين خيالية لدولة خيالية)) .

وتكمن واقعية مكيافيلي في التقليل من شأن معايير الحياة السياسية، ولم يأخذ بكمال الانسان على انه هدف للحياة السياسية، بل اخذ الهداف الدنيا التي يسعى اليها بالفعل معظم الناس والمجتمعات، ومن المحتمل ان تتحقق الخطط السياسية التي تصاغ بناء على دوافع الانسان الدنيا، ولكن الاكثر قوة و اكثر مما تحقق بيوتيبيا الكلاسيكيين[٣٩].ومع ذلك فقد وضع هوبز بعناية وتفصيل، وعلى خلاف مكيافيلليو قواعد لقانون ملزم اخلاقيا، يحدد اغراض المجتمع المدني . لكنه فصل ٠متبعا واقعية مكيافيلي) نظريته في القانون الطبيعي عن فكرة كمال الانسان لقد حاول ان يستنبط القانون الطبيعي مما هو اكثر قوة في معظم الناس، معظم

الوقت: ليس العقل وإنما الانفعالات. وبسبب ما نظر اليه هوبز على انه اكتشاف الجذور الحقيقية للسلوك البشري و ومعرفته بالطبيعة البشرية و وطريقته العلمية في الانتقال وفقد اعتقد انه نجح حيثما فشل الاخرون كلهم، اي انه الفيلسوف السياسي الحقيقي الاول[٤٠]. ويمكن ان نقول انه من هنا قيل عنه بأنه اراد ان يكون (اقليدس علم السياسة) اي انه يصل فيها الى يقين الرياضيات. وطبقا لهذه الاعتقادات أوصى بان تقرر كتبه في الجامعات من حيث أنها معتمدة وموثوق بها.

**المطلب الاول : منهجه :**

هناك عوامل ومؤثرات معينة ادت في توجيه اهتمام هوبز نحو الفلسفة، ومن ثم بلورة اتجاهه الفلسفي واولهما اطلاع هوبز على كتاب (الاصول) لأوقليدس، وأعجابه الشديد بالمنهج الذي اتبعه والطريقة الاستنتاجية التي اتبعها، ودقتها ووضوح الافكار التي عرضها وثانيهما اطلاعه على الانجازات التي حققها غاليلو في مجال الفلسفة الطبيعية والتي جاءت مصداقا للمنهج التحليلي التركيبي الذي اتبعه هوبز ومعالجة الاخلاق بطريقة هندسية[٤١].

ويعرف هوبز المنهج بانه:((اقصر طريق للعثور على المعلومات بواسطة عللها المعروفة، او العثور على العلل بواسطة معلوماتها المعروفة))[٤٢] وبعبارة اخرى فان هوبز يحدد مفهومه للمنهج بالاستناد الى مفهومه للفلسفة، من حيث انه يعرف الفلسفة بأنها((المعرفة بالظواهر او بالنتائج والاثار الظاهرة والتي نتوصل اليها عن طريق الاستنتاج الصحيح، مما نعرفه عن اسبابها ومنشئها او هي المعرفة بأسبابها ومنشئها استنتاجا ممل نعرفه عن نتائجها وأثارها)) وعلى هذا الاساس يعتبر المنهج على انه ((اقصر السبل لاكتشاف النتائج بواسطة اسبابها المعروفة او اكتشاف الاسباب بواسطة نتائجها المعروفة))[٤٣] وهناك نوعان من المنهج يناظران عملية الجمع والطرح احدهما تركيبي وبه نستطيع ان ننتقل من المبادئ الاولى (التعريفات) الى معرفة شيء مركب والهندسة التركيبية كلها وكذلك القياس والنوع الثاني من المنهج التحليلي و به نصل الى فهم الشيء بتحليل الفكرة الى الكليات التي تتألف منها والتي اسبابها واضحة ومتجسدة في مبادئ اولى[٤٤] ولتوضيح مقصد هوبز من هذا المنهج بنوعية ، نقول ان العلم بني من المعارف المنظمة، نموذجها ونقطة ابتدائها على الهندسة اذ في الهندسة من البديهيات (في النظر هوبز التعريفات) وبعد ذلك نستنبط من هذه البديهيات (التعريفات) اي اننا نجمعها بالمعنى الواسع (للجمع) كما يفهمها هوبز والهندسة في نظره اشد وأكثر علوم الحركة تجريدا، ذلك لأنه يرى الخط مثلا هو الطريق الذي تتخذه نقطة

متحركة ولما كان لا يوجد في العالم ألا مادة هي في حالة حركة فأننا اذا عرفنا قوانين الحركة اكتمل علمنا من حيث المبادئ النظرية.[٤٥] وبمعنى اخر المعرف عند هوبز نوعان: الاول معرفة تتعلق بوجود الاشياء وهذه تستمد من الادراك الحسي، او التخيل، او التذكر.

والثاني معرفة تتعلق بأسباب وجود الاشياء، وهذه لا يمكن التوصل اليها او اكتشافها ألاعن طريق الاستنتاج، والذي قوامه التركيب والتحليل وعليه فما من منهج يمكن ان تكتشف بواسطته اسباب الاشياء ألا ويكون اما تركيبيا او تحليلا او يجمع بينهما وعلى اساس هذين العنصرين (التحليل والتركيب) يميز هوبز بين نوعين من المنهج وهما منهج الاكتشاف ومنهج البرهان أو التعليم [٤٦]. ويقصد(بالمنهج الاكتشاف)، المنهج الذي يستخدم في اكتشاف الاسباب ونتائجها ، سواء في مجال الفلسفة الطبيعية او الفلسفة المدنية (الاخلاق والسياسة) وهو يتألف من خطوتين التحليل والتركيب. والتحليل هو الانتقال من الجزئي الى الكلي، أي البدء من الاحساس وصولا الى المبادئ الاولى التي تساعدنا على معرفة اسباب الاشياء كلها(معرفة اسباب الاعراض والصفات التي على اساسه يميز جسم عن اخر) اما التركيب فيعني عنده الانتقال من الكليات الى النتائج التي ترتب عليها ويرى ان اول ما نعرفه من خلال معرفة الكليات وأسبابها، وهو تعريفاتها والتي تكون توضيحا لمفاهيمنا. وما تجدر الاشارة اليه ان هوبز استخدم المنهج التركيبي في وضع نظام فلسفي استنتاجي على اعتبار(الحركة اساس الاشكال المتنوعة التي تبدو بها الاشياء والسبب الفاعل لكل الظواهر التي تحدث في الكون) لينتقل الى مجال الفلسفة المدنية لدراسة حركات العقل اي الانفعالات كالخير والحب والنفور... الى اخره، لمعرفة اسبابها ونتائجها وهي تؤلف موضوع الفلسفة الاخلاقية والاساس الذي تقوم عليه الفلسفة السياسية اما النوع الثاني (منهج البرهان او التعليم) ويقصد به المنهج الذي يستخدم في نقل ما توصلنا اليه من اكتشافات ونتائج الى الغير اي تعليمه اياها، والبرهنة على صوابها، بنفس الطريقة التي توصلنا بها اليها اي ان منهج البرهان هو منهج تركيبي يبدأ من القضايا الاولية او العامة والتي تكون واضحة بذاتها ويتواصل بتركيب القضايا على هيئة قياس حتى يمكن للمتعلم في نهاية الامر معرفة صدق النتيجة المطلوبة .

اما المبادئ فهي عند هوبز(التعريفات) والتي برأيه هي مجموعة من الالفاظ يتم بواسطتها نقل فكرة ما عن شيئا معين لسامع. ويكون للتعريف خصائص وشروط محددة بحيث يقوم التعريف بإزالة الالتباس والغموض وتحديد الاسم

المعرف وإعطاء فكرة واضحة عنه[٤٧]. وبذلك يمكننا القول في هذا السياق ، ان هوبز قد حدد مهمة الفلسفة في استنتاج المعرفة بالظواهر ونتائج الاشياء، مما هو معروف عن اسبابها ومنشئها، او استنتاج اسبابها ومنشئها مما هو معروف عن نتائجها وأثارها. وبعبارة اخرى ان مهمة الفلسفة هي معرفة نشوء الاشياء وكيفية حدوثها وهذا يعني ان موضوع بحثها يقتصر على الاشياء والاجسام الحادثة( كل جسم ان نتصور حدوثه ونشوئه يكون قابلا للتركيب والتحليل) وقد ميز هوبز ثلاثة انواع من الاشياء الحادثة او التي يمكن تصور كيفية حدوثها ويمثل كل منها موضوع او جزء معين من اقسام الفلسفة، وهي الخطوط والاشكال الهندسية( وتمثل موضوع علم الهندسة) والاجسام الطبيعية (وتمثل موضوع علم الفيزياء) ، والكيانات السياسية( اي الدولة وبضمنها المجتمعات البشرية) ،والتي تمثل موضوع( الفلسفة المدنية) [٤٨]. وتبعا لذلك فان العلم الهندسة قابل للبرهان لان الخطوط والاشكال التي نبدأ التفكير منها هي من رسمنا وتصويرنا نحن البشر ، والفلسفة المدنية قابلة للبرهان ، لاننا نحن الذين نقيم الدولة اذا نحن الذين نقيم الدولة ويتضمن ذلك المجتمع وان اسبا نشوئها تكمن فينا نحن البشر . ولكن بأي معنى؟ وما الذي يقصده هوبز: ان اسباب نشوء الدول والمجتمعات تكمن فينا ؟ لكي نفهم ما يقصده لابد لنا ان نعرف انه اعتبر ( الحركة Motion) السبب الفاعل لكل ما يوجد في الكون من ظواهر، بما في ذلك فعاليات الجسم الانساني وأفعال الانسان ومظاهر سلوكه التي تتجلى في نهاية الامر، في علاقته مع غيره من البشر ، وسعيه للتعاون معهم الى انشاء او اقامة المجتمعات والدول لان المجتمعات والدول برأيه تنتج عن الحركات التي تجري في عقول افراد البشر اي ما اصطلح على تسميته (بالانفعالات Passion) وان معرفة اسباب هذه الحركات هي مبادئ الفلسفة المدنية[٤٩]. ويضرب لنا هوبز مثالا عن المنهج اذا قام انسان ما بفعل معين وتسائل عما اذا كان هذا الفعل عادلا ام جائرا، ثم شرع في تحليل مفهوم الفعل الجائر ورده الى واقعة ضد القانون ثم شرع في تحليل مفهوم القانون ورده الى اوامر الحاكم او الممسك بزمام السلطة ثم شرع في تحليل مفهوم السلطة، ورده الى اتفاق ارادة الافراد الذين انشئوا هذه السلطة بغية العيش في ظلها بسلام وطمأنينة... الى اخره ، فأنه سيتوصل في النهاية الى حقيقة: ان رغبات افراد البشر وشهواتهم وانفعالات عقولهم هي على نحو، بحيث انهم ما لم تكبحهم سلطة ما سوف لن يكفوا عن محاربة بعضهم البعض وهذا ما يمكن ان تأكده خبرة اي انسان [٥٠]. لذلك يعتبر هوبز ان المنهج التخليلي مهم بصفة خاصة بالنسبة للفلسفة السياسية

ويدعو هوبز قارئه بأن يختبر صدق ما كتبه بأن ينظر في نفسه وينظر فيما اذا كان ما يقوله عن الانفعالات والميل الطبيعية للبشرية تنطبق عليه ثم يتعلم ان يقرا نفسه ويعرفها ، ويستطيع تشبيه الانفعالات والمواقف ان يقرا انفعالات الاشخاص الاخرين وأفكارهم . ويرى وجوب فهم السلوك البشري عن طريق سيكولوجيا الية عن الانفعالات تلك القوى الموجودة في الانسان التي ان جاز التعبير تدفعه من الخلف .اي انه لا يجب ان يفهم السلوك عن طريق تلك الاشياء التي يمكن ان يتصورها تجذب الانسان من الامام، اي غايات الانسان، وما يسميها هوبزب موضوعات الانفعالات. فهذه الاخيرة تتنوع حسب تكوين الشخص وتربيته ومن السهل جدا ان تختفي .[٥١]ومن ذلك يمكننا القول بأمكانية تأكيد هوبز على المنهج التحليلي ،لأنه يحقق له هدفه في تكوين مبادئ الفلسفة المدنية او اسباب حركات العقل. وكان يعتبره المنهج الوحيد الذي يفي بغرضه ،وهو يعبر عنه بعبارة ""أقرأ نفسك"". كما انه اعتقد بان الفلسفة المدنية والتي تشمل الفلسفة الاخلاقية والسياسية ،قابلة للبرهان ،الان مبادئها معروفة فهي تقوم برغبات وانفعالات البشر، والتي يمكن للفرد ان يتوصل لاكتشافها عن طريق اتباع المنهج التحليلي، بتأمل ذاته وملاحظة ما يساوره من افكار ورغبات وانفعالات في احوال معينة ،وان منهج الاكتشاف ينطوي على التحلي والتركيب.

**المطلب الثاني الاساس الفلسفي لنظريته**

لقد اتبع هوبز في محاولته اكتشاف النتائج منهجا شبيها بالذي اتبعه غاليلو عند دراسته الظواهر الطبيعية حيث حاول اكتشاف النتائج عن طريق اجراء تجربة عقلية (على غرار غاليلو) بتحليل المجتمع الى ابسط عناصره الاساسية من حيث افراد البشر والمبادئ التي تتحكم بسلوكهم من انفعالات ورغبات، وكذلك العوامل الخارجية التي تؤثر في سلوك الافراد او تتدخل في توجيههم ومسارهم مثل السلطة الحاكمة، القوانين، الاعراف.. الى اخره، ثم تناول الافراد كما لو كانوا منفصلين عن بعضهم ودرس سلوكهم بمعزل عن تلك العوامل الخارجية . ومن خلال هذا التصور توصل الى اكتشاف النتائج التي تترتب على المبادئ التي تتحكم بسلوك وحركة افراد البشر وقد اتخذت هذه النتائج عنده بشكل مجموعة من القواعد او القوانين يتم بموجبها اعادة تركيب المجتمع من جديد واسماها (قوانين الطبيعة) ،وتمثل في رأيه الفلسفة الاخلاقية . وقد قسم الفلسفة الى قسمين رئيسيين ،هما الفلسفة الطبيعية التي تتولى دراسة الجسم الطبيعي (من نتائج الطبيعة) ،والفلسفة المدنية التي تتولى دراسة الجسم الاصطناعي، او ما يسمى بالدولة والتي تنشأ من اجماع وارادة واتفاق

البشر. ولما كانت معرفة خصائص ومواصفات الدولة تتطلب برأيه ،معرفة نزعات وعواطف البشر وأنماط سلوكهم، فأن الفلسفة المدنية تنقسم بدورها الى قسمين :الاول، يسمى علم الاخلاق ،ويبحث في نزعات البشر وسلوكهم، والثاني يسمى علم السياسة ويختص ببحث واجباتهم المدنية، وحلقة الوصل بين هذين القسمين الرئيسيين للفلسفة، هي الانسان، لان الانسان بقدر ما هو نتاج الطبيعة وأيضا مادة الدولة وصانعها على حد السواء[٥٢] . واستنادا لهذه الصلة بين موضوعات الفلسفة (الجسم الطبيعي ،والجسم الانساني، والجسم الاصطناعي المركب والمسمى بالدولة) ،من جهة، وانسجاما مع اتجاهه المادي الميكانيكي، من جهة اخرى اعتقد بأمكانية ودراسة هذه الاقسام بطريقة استدلالية ،عن طريق استنتاج تصوره عن الانسان وطبيعته، واستنتاج تصوره عن الدولة من تصوره عن الانسان واستنتاج المبادئ السيكولوجية التي تتحكم بسلوكه وحركات عقله ،من مبادئ الفلسفة الطبيعية ،ذلك من خلال دراسة مبادئ الانسان وتكوينه بوصفه جزئا من الطبيعة ،يخضع كأي جسم اخر لنفس المبادئ والقوانين الميكانيكية التي تتحكم بحركات الجسم المادية . [٥٣] ويرى ان المعرفة تتم من خلال المعاني (الافكار) وان الاحاسيس هي المصدر الوحيد لمعانينا وهنا يرفض المبدئ الديكارتي ((انا افكر، اذن، انا موجود)) ويرفض القول بوجود افكار فطرية بالدماغ ،فالتجربة ترينا ان الناس المستسلمين لنوم عميق بدون احلام لا يفكرون ، مما يعني انه ليس ثمة افكار لديهم في ذلك الوقت، و وبذلك يبطل القول بأفكار فطرية، فان ما هو فطري يجب ان يكون ماثلا دوما للعيان وعلى هذا النحو لا تكون حواسنا الخارجية مصدر افكارنا فحسب بل هي أصل معرفتنا[٥٤].

وبذلك يرى هوبز ان مصدر كل معرفة انسانية هو الاحساس والسبب في اي احساس هو ضغط موضوعي خارجي على عضو الحس فتتولد حركة تستمر الى الدماغ او القلب، لتستجيب لها حركة بلون او صوت او رائحة او احساس بالحرارة او البرودة...الخ. وعلى هذا فان الاحساس هو ناتج في الدماغ عن مسبب من شيء خارج الجسم[٥٥].ويحاول ان يفسر سائر العمليات العقلية على اساس مادي ألي خالص ويرى ان كل ما موجود هو جسماني خاصيته الامتداد او الحركة سواء كان طبيعي ام اصطناعين انسانيا ، وهاتان الخاصيتان هما التان تثيران الكيفيات المحسوسة . ودور العلم هو معرفة الحركة بأعتبارها البديلة في كل شيء ويقول"" ان اصل الحركة هو الحس، وخارج الاحساس ليس هناك اي فكرة، والعلل الحسية خارجة عن الانسان، ولكن تبعث في الانسان عن طريق اللمس، والشم، والرؤية،

والسمع، وكذلك عن طريق الاعصاب فالواقع هو الذي يفرض الاحساس والحركة[٥٦].

وعلى هذا كان العالم عنده عبارة عن الة والية، وذلك سواء بالنسبة للعالم الطبيعي، او الانساني الذي لا يخرج عن النظام الطبيعي وفي ذلك تظهر نزعته المادية ، فالإنسان باعتباره جزءا من هذا العالم فلا بد عليه ان يخضع لقانون الحركة التي يخضع لها الكون، اذ ان نفسه تتحرك نحو الاشياء الخارجية التي ترضي رغباته وأهوائه، كما يبتعد عن الاشياء التي لا تتفق ورغباته وميوله[٥٧].

ولذلك فمن الحركة يولد الاحساس الذي هو مصدر كل العلوم، واحساس الانسان هو المتعلق بجميع توجهاته، سواء بالرغبة في شيء او الابتعاد عنه، فهو خاضع لأهوائه وعواطفه الطبيعية، التي تقود دائنا الى حب السيطرة، وان الانسان باعتباره الة طبيعية ومن خلال اجتماعه مع غيره من البشر يؤسسون الدولة كالة اصطناعية ذات بأس وقوة، مهمتها المحافظة على المنفعة الاولى لجميع الافراد الذين ارتضوا صنع هذه الالة الحامية[٥٨].

وفي ضوء ما سبق يرى هوبز ان العلوم الطبيعية تبحث في الحركات الحادثة في ذرات الاجسام ، بينما يبحث علم السياسة على الحركات الحادثة في نفوس الناس والباعثة على افعالهم غير انه يرى ان هناك فرق بين الظواهر الطبيعية الميكانيكية، والظاهرة الانسانية، فالأولى لا تخضع للقياس لأنها تقع بالفعل من بين الظواهر الممكنة الوقوع، ومن ث يكون مبدأ علم الطبيعة هو تحليل تلك الظواهر الواقعة.

بينما علم السياسة والانسان، فان المبادئ التي يستند عليها ي الميول والانفعالات، وهي لا تستنبط مما سبق، بل تدرك في النفس وتوضع كمقدمات جديدة للقياس، ولا وجود لنفس مستقلة عن جسد وحتى عواطف الانسان وميوله ووجدانه، تخضع لعملية جسمية مادية متمثلة في الدورة الدموية، حتى وان كانت تلك الحركات النفسية متولدة من مؤثرات خارجية، ولذلك فان رغبات الانسان تتجه بطبيعتها الى حفظ حياته[٥٩]. اما بالنسبة لمفهوم الحركة، فقد اعتقد أن الحركة وجدت مع وجود العالم وما فيه من اجسام وأشياء، وعلى الرغم من انه اعتبر المادة والحركة يشكلان اساس كل الظواهر في الوجود، الا انه استند بالدرجة الاولى، الى الحركة في تفسير تلك الظواهر، والتغييرات التي تطرأ عليها. فالأجسام المادية لا تختلف عن بعضها البعض الا من حيث اختلاف حركات اجزائها الداخلية، وان كل

مـا ندركـه او نتحسسـه هـو بسـبب تلـك الحركـات الموجـودة فـي اجـزاء الاجسـام المادية[٦٠].

ان الحركـة بـرأي هـوبز هـي السـبب الفاعـل لمختلـف النشـاطات والحركـات التـي تطـرأ علـى جسـم الانسـان بمـا فـي ذلـك اشـكال سـلوكها الظـاهر وافعالـه مـن حيـث ان الاحسـاس والتخيـل يرجـع سـبب حـدوثهما الـى حركـة فـي اجـزاء الاشـياء او الاجسـام الخارجيـة، كـذلك فـأن حركـات العقـل ومـا ينـتج عنهـا مـن ظـواهر سـلوكية يرجـع سـبب حـدوثها الـى الاحاسـيس والتخـيلات لان الحركـات الـواردة مـن الجسـم الخـارجي لا يقتصـر تأثيرهـا علـى الـدماغ فحسـب (تكـوين الصـورة الذهنيـة) بـل انهـا تنتقـل الـى القلـب وتسـبب نوعـا اخـر مـن الاحاسـيس يتصـل بأنفعـالات الانسـان وبالتـالي افعالـه الظـاهرة. ويـرى هـوبز ان القلـب اصـل ومنشـئ الحيـاة ومركـز الحركـة الحيويـة سـواء تعمـل علـى زيـادة سـرعتها او ابطائهـا فعنـدما تعمـل علـى زيـادة سـرعتها، تـدعى (باللـذة) اما حين تعمل على عرقلة الحركة الحيوية وابطائها تدعى (بالالم)[٦١].

وعليـه فـلان التـاثير الفعلـي الـذي يحـدث فـي الـدماغ سـببه حركـة الجسـيمات الماديـة فـي الـدماغ، تعـزي اليهـا افكارنـا وتصـوراتنا عـن الاشـياء . كـذلك فـان التـأثير الفعلـي الـذي يحـدث فـي القلـب هـو ايضـا حركـة، وان اللـذة والالـم همـا الاسـاس فـي تلـك الحركـة، وتمثـل كـل مـن اللـذة والالـم (الجهـد) الحقيقـي الاول الـذي تبـدأ بـه الحركـة الاراديـة، مـن حيـث ان ذات الحركـة التـي يـنجم عنهـا الاحسـاس باللـذة والالـم، يمكـن ان يـنجم عنهـا فالوقـت ذاتـه نوعـان مـن الاسـتجابة، اي انهـا تكـون بمثابـة حـث، امـا عـن الاقتـراب مـن الشـيء الملـذ، او الابتعـاد عـن الشـيء المـؤلم . وبالتـالي حيـث يتجـه الجهـد الاول نحـو الشـيء الـذي سـببه فيسـما (الرغبـة)، امـا حـين يبتعـد عـن ذلـك الشيء فيسمى (النفور). هذه العملية المتصلة يسميها هوبز بالتفكير (التروي).

والرغبـة او النفـور الاخيـر المـرتبط بأتيـان الفعـل وتفاديـه، يسـميه الارادة . وكمـا ان الرغبـة هـي بدايـة الحركـة الاراديـة نحـو شـيء ملـذ وسـار كـذلك ان الحصـول عليـه هـو الهـدف وغايـة تلـك الحركـة، وعنـدما يتوصـل الانسـان الـى تلـك الغايـة فـأن البهجـة التـي يستشـعرها تسـمى (التمتـع Frution) والتـي تمثـل الحركـة الاراديـة [٦٢]. ويتبـين لنـا مـن ذلـك، ان الحيـاة تبـدو فـي نظـر هـوبز علـى انهـا حركـة، وهـي فـي الانسـان حركـة اطـراف، والانسـان نفسـه عبـارة عـن الـة ماديـة ذاتيـة الحركـة، وتكـون اجزائهـا، القلـب (النـابض)، والاعصـاب هـي الخيـوط والاسـلاك والـدواليب هـي المفاصـل، وتتضـافر هـذه الاجـزاء كلهـا فـي مـد سـائر الاجـزاء الاخـرى بالحركـة . فضـلا عـن ان حركـة الانسـان، بأعتبـاره جسـما ماديـا تخضـع للقـوانين الميكانيكيـة التـي تسـري علـى

سائر الموجودات في الكون ، ويمكن تفسير مختلف نشاطاته ومظاهر سلوكه في حدود هذه القوانين، لان هذه النشاطات سواء كانت جسمية ام ذهنية، هي مظاهر لحركة اجسام مادية دقيقة (في اعضاء جسم الانسان)تخضع لمبدأ السببية ومبدأ القصور الذاتي ،وتكون حركتها كرد فعل على مؤثرات وحركات صادرة عن الاشياء والاجسام المادية في العالم الخارجي . وبذلك انعكس الاتجاه المادي الميكانيكي على تصورات هوبز ومفاهيمه الاخلاقية، من حيث تصوره للبشر على انهم اشبه بالالات المادية ذاتية الحركة، وتتماثل في تكوينها وتتساوى في حاجاتها الضرورية الى استمرا حركتها الحيوية. هذا التصور ادلى به الى اعتبار ان جميع البشر متساويين في الحقوق ما دام انهم متساوون في حاجاتهم الضرورية. كما انه اخذ بمبدئ القصور الذاتي، الذي يقضي بأستمرار الجسم دون استمرار تأثير القوة الخارجية عليه، ولا حاجة ان تفرض عليه من الخارج . وبالتالي فان كل القيوم والحقوق والالتزامات الاخلاقية نابعة من قدرات البشر وحاجاتهم المتساوية [٦٣]. كما ان تصوره للبشر على انهم اشبه بالالات المادية ذاتية الحركة ، قد اثر على نظرته الى الدوافع والبواعث، من حيث تفسيره لدوافع الانسان تفسيرا ميكانيكيا، ولردها الى عدد ضئيل من مشاعر الرغبة والنفور، وربط دوافع الانسان على الفعل، بالتأثيرات او التغيرات التي تصيب الجسم، كل ذلك ادت به الى اعتبار كل دوافع الانسان هي دوافع انانية وذاتية، وقد انعكس ذلك على نظريته من حيث اعتباره كل افعال الانسان تصدر عن الانانية، كما ان كل القيم التي تقاس بها خيرية الاشياء وشريتها، هي قيم ذاتية، نسبية، تختلف من انسان الى اخر . فضلا عن ان القيم والمعايير والقوانين الاخلاقية، لن يكون لهل تأثير في الزام الانسان بمراعتها والتقي دبها، طالما ان خرقها لن يؤدي الى حدوث تأثيرات جسمية ضارة او مؤلمة. فما دام الانسان يسعى اولا الى ضمان استمرار حركته الحيوية، وبالعكس ، فانه عندما يدرك ان فعلا معينا يمكن ان يسبب له اثم او عرقلة حركته الحيوية، فانه سوف يتجنبه ، لا بسبب ان ذلك الفعل يمثل شرا او يخالف القوانين الاخلاقية و لكن بدافع نفوره، وسوف يتجلى ذلك بوصف هوبزمما يكون عليه حال البشر في حالة الطبيعة حيث تكون القوة والحيلة هما الفضيلتان الرئيستان في عرف البشر، وتنعدم مفاهيم الصواب والخطأ والعدل والظلم[٦٤]. وهنا يمكننا القول ان تأثير فكرة (الحركة) على نظرة هوبز الى الانسان ونشاطاته وانفعالاته، يشمل ايضا نظراته الى المجتمع وطبيعة الانسان وعلاقته. فاذا الطبيعة جعلت الانسان انانيا لا يهمه سوى ضمان استمرار وزيادة حركته الحيوية ويستجيب الى الاشياء

بدافع الرغبة والنفور، واذا كان العالم مليء بأشكال متجددة ومتنوعة من الاشياء التي يمكن ان تكون هدفا لرغبته ونفوره فأن حياته تصبح والحالة هذه عبارة عن نشاط متصل وحركة مستمرة، كما ان السبيل الوحيد لبلوغ السعادة يكون من خلال النجاح المتصل في احراز ما يرغب فيه الانسان. وبالمقابل ان الانسان لا يعيش بمفرده ، بل يشاركه اناس اخرون يسعون هم ايضا الى نفس الغاية وان اشتراكهم في السعي الى تحقيق هذه الغاية يمكن ان يدفعهم الى الرغبة في الاستحواذ او الحصول على اشياء معينة بالذات ، فالوقت الذي لا يتوافر ذلك الشيء بالقدر الذي يكفي لإشباع حاجاتهم جميعا فنا ذلك يؤدي الى عجز كل فرد عن ضمان ما يساعد استمرار الحركة ، اي (استمرار الحياة)، وسوف يؤدي بهم ذلك الى اللجوء لاستخدام وسيلة فعالة تمكنهم من تذليل الصعوبات التي تعترضهم. وتصبح القوة وبكل اشكالها الوسيلة الفعالة والحاسمة التي يلجأ اليها الانسان في سعيه لتحقيق غاياته، وتتحول حياته الى السعي من اجل القوة ،وبما ان القوة لا تكون حكرا على احد بل انها متيسرة لكل من ينشدها . فأن السعي من اجل القوة ومن اجل تحقيق الغاية يتحول الى تنافس ضار وتصبح الحياة اشبه بسباق وتنافس بهدف الفوز بالأسبقية واستبعاد اي احتمال الفشل، لان الفشل يعني الموت، هذه هي الصورة التي رسمها هوبز للمجتمع وحياة الانسان في ظلها، فالمجتمع لا يعدو عن كونه مجموعة من الافراد في سباق طويل يستغرق الحياة كلها، ويتعين على كل فرد خلاله ان يواصل الحركة بكل طاقاته وتخطي سائر منافسيه، لان الفوز والسعادة لا يتحققان الا باستمرار تخطي المنافسين. كما ويتبين من ذلك، الصلة الوثيقة بين فلسفته الطبيعية وفلسفته السياسية . هذه الصلة التي قامت على اساس التأثير الواضح الذي تركته افكاره الاساسية لفلسفته الطبيعية على فلسفته السياسية وتجلت في محاولته تعميم هذه الافكار وتطبيقها على الانسان ونشاطاته وانفعالاته، والتي بدورها تعتبر الاساس الفلسفي العام لنظريته.

**المبحث الثالث : فلسفته السياسية وتحليل الحكم**

كان هوبز يرى شأنه شأن معاصريه بيكون وديكارت – إن المنهج هو مفتاح الوصول إلى المعرفة . كما ان هناك حقيقة تحكم فكره السياسي، تتلخص في ان الصياغات الفكرية التي توصل اليها هي نتاج حالة الخوف التي خضع لها . وقد كتب (جورج ليون) في كتابه ((فلسفة هوبز)) عام ١٨٩٣ ، وأشار إلى ان مسيرة الكاتب لا تنفصل عن مسيرة الانسان ، وهوبز كإنسان كان قد خضع لتأثيرات محيطة وافكاره هي (ردة فعل لحالة الخوف تحسسها باعتباره مواطناً ، في زمن،

وفي بلد تعرضا للتقلبات بفعل الثورات) ثم يعود ويقول (يبدو ان المآسي السياسية التي سادت بلاده كانت قد حكمت تأملاته المتعلقة بالدولة) ثم يؤكد ذلك (برتراند رسل) ويقول إن هوبز (يستبد به هاجس الخوف من الفوضى)، وهذا يفسر باعتقاد (جورج بوردو) اندفاع هوبز في صياغته الفكرية ، نحو تلمس النظام السياسي الذي يكفل إقامة السلام والطمأنينة، حتى ولو قام على أساس من السلطة المطلقة .[٦٥]

وقد كتب (جون هرمان راندال) في كتابه ((تكوين العقل الحديث)) مبيناً تلك التوترات التي حصلت في انكلترا، والصراع الاجتماعي – الديني في اوج قمته، وكذلك شعور الطبقة البرجوازية في انكلترا على انها قادرة على تسلم قيادة الامور وصيانة القانون والنظام بنفسها، هذا الصراع تجسد في الحرب الاهلية. بعد ذلك اخذت سلطة مجلس العموم تتعزز اكثر فاكثر، عبر هذه التوترات والصراعات، الى ان اصبحت فيه انكلترا ملكية برلمانية تمارس فيها البرجوازية السلطة الكاملة، لكن في ذلك الوقت كان هوبز قد فارق الحياة. لكن بالمقابل قد ادرك ان هذه التوترات الدامية كان لها انعكاسها على فكره من حيث تولد عنها هاجس الخوف لديه، والذي مثل ردة الفعل عن الصراع الاجتماعي – الديني، مما دفعه الى البحث عن السلام والطمأنينة كهاجس بديل عن الخوف، على اعتبار وجود الاول يتضمن تجاوز وجود الثاني، واعتبر ان الوسيلة التي بموجبها تحقيق السلام والطمأنينة متمثلة بالسلطة المطلقة.[٦٦]

كانت فلسفة هوبز عقلانية مرتكزة على ثقافة علمية يقينية وتعد السياسة علم يجب تركيزه على المفاهيم العادلة والتعارف الدقيق، كما ان فلسفته السياسية كانت مناوئة للارسطية، وبرفضه الافكار الفطرية الطبيعية فضلاً عن تأكيده على اهمية التعارف والاشارات واللغة ويقول: ( لولا اللغة لما كان بين الناس لا دولة ولا مجتمع ولا عقد ولا سلم، كما لا يمكن ان يكون ذلك بين الاسود والدببة والذئاب)[٦٧]. وكان يرفض اللجوء الى ما هو فوق الطبيعي، ويحارب القوى الخفية والاشباح في كتاباته، ويبين الارباح التي الكهنوت من مسألة الخوف من الشيطان، ويبين ان القلق البشري هو في اساس الدين بقوله : (ان الخشية من قوة خفية، سواء كانت وهماً من الفكر او تصوراً مأخوذاً عن العادات المقبولة عموماً، هو الدين). وهكذا يذهب (جان توشار) الى ان عمل هوبز يتجه الى تحرير الانسان من الوهم والخوف ويشكل تعبيراً صارخاً عن الإلحاد السياسي[٦٨]. فقد كانت فلسفته السياسية ملكية بصورة تقليدية ، ثم انتقل الى نوع من الملكية الاجتماعية وذهب تفضيله نحو الملكية الوراثية ومن ذلك نستدل من خلال مؤلفاته على انه عمل على استبدال

الفضائل الارستقراطية (شرف ومجد) بفضائل برجوازية يوصي بها الخوف والحذر، وفي الواقع هو ظل أمين لبعض المبادئ، ليس القصد منها اخلاصا لمبدأ الملكية ، وانما الاخلاص للحكم، وكان يبحث في السياسة عن الطريق الوسط. واذا كان يدافع عن قضية الحكم المطلق، فليس باسم الحق الإلهي للملوك، بل باسم مصلحة الافراد، وباسم البقاء والسلم يجعل الحكم زمنيا ودنيويا، يدل لا على جلاله وإنما على منفعته[٦٩]. وكان أول الفلاسفة المحدثين الكبار الذي حاول ان يقيم علاقة وثيقة بين النظرية السياسية ومذهب حديث تماما في الفكر، وعمل جاهدا لكي يجعل هذا المذهب من السعة بحيث يفسر على اساس المبادئ العلمية، وجميع حقائق الطبيعة بما فيها السلوك البشري بحالتيه الفردي والاجتماعي، كما ان افكاره شكلت منهجا علميا سليما بالمقارنة مع افكار عصره. والحقيقة هي انه كان لديه شيء أقل ما يمكن وصفه بأنة علم سياسة، وهو لا يتجزأ من فكرته عن العلم الطبيعي ولهاذا السبب أفاد المفكرون الذين حاولوا تفنيده . ان فلسفته توضح قول بيكون :"يخرج الصواب من الخطأ بأسهل مما يخرج عن الاضطراب ".[٧٠]

**المطلب الأول : فلسفته السياسية**

استعان هوبز في فلسفته السياسية بالمعاني الرائجة في عصره، مثل :المساواة ،القانون الطبيعي، الحقوق الطبيعية للانسان، العقد الاجتماعي، السيادة، العدالة،...الخ .لكنه يعالج هذه المعاني على نحو يختلف كثيراً عن معالجة فلاسفة السياسة السابقين عليه لهل مثل أفلاطون وأرسطو وتوما الاكويني وجان يودان وكروشيوش وغيرهم .

**أولاً : حالة الطبيعة:**

يتميز الانسان عن غيره من المخلوقات بعقله الذي هو اداة للترجيح بين النتائج، وبالرغبة في الكشف عن الحقائق (لماذا وكيف)، وبالدين الذي هو وليد الرغبة في التعرف على سبب الاسباب كلها، عن ذلك السبب الاول والابدي إلا وهو أالله الجهل بالمستقبل والخوف من المجهول .[٧١]

في رأي هوبز ان العالم الطبيعي هو نظام آلي تحكمه الحركة، وان كل العمليات الطبيعية هي مظاهر معقدة للحركة التي تخضع لها الطبيعة. وبذلك فأن المجتمع نظام آلي اساسه الحركة وكذلك الدولة ، فهي في نظره انسان آلي أساسه الحركة المتمثلة بتوجه الانسان نحو الانسان عن طريق اللغة وما يترتب على ذلك من فعل ورد فعل وهما نوعان بدائيان من الاحساس (الرغبة والنفور)، وان موضوع

الرغبة هو الخير، في حين ان موضوع النفور هو الشر، والشر الاعظم هو الموت.[٧٢]

ان الرغبة تتمثل بالسعي وراء ما يلائم العمليات الحيوية. فالقاعدة التي تحكم السلوك هي ان الجسم الحي مدفوع بالغريزة الى المحافظة على حيويته او زيادتها، اي ان الرغبة تتمثل بالمحافظة على الذات، وهذا يعني استمرار الوجود البيولوجي الفردي، وان الخير هو ما يؤدي الى هذه الغاية، والشر هو الاساس (السبب) في تحقيق هذه الرغبة (المحافظة على الذات) .[٧٣]

ولما كانت وسائل الامن معرضة للتهديد، وان المحافظة على الذات، لا تتحقق بمنأى عن ضمان الامن، يمكننا القول بأن الرغبة في الامن الذي بموجبه تتم المحافظة على الذات لا يمكن فصلها عن الوسيلة التي تتحقق بموجبها، الا وهي القوة. وكتب هوبز قائلا :"اني اجعل من رغبة دائمة لا تستقر، في القوة بعد القوة، وهي رغبة لا تهدأ ولا تتوقف الا بالموت، ميلا عاما لدى البشر جميعا. وليس السبب في هذا دائما ان الانسان يأمل في قدر من السرور اكثر مما بلغه، او انه لا يمكن ان يقنع بسلطة اكثر اعتدالا. ولكن لأنه لا يستطيع ضمان ما يملكه الآن من القوة ووسائل المعيشة الطيبة الا بالاستحواذ على المزيد منها".[٧٤]من هذا المنطلق يحاول هوبز ان يرسم صورة لحالة الطبيعة، وان الانسان تحركه الاعتبارات الذاتية المتعلقة بأمنه وقوته وسيكون الانسان منافس للإنسان الآخر، ويجهد كل واحد من اجل تحطيم الاخر من اجل الحفاظ على ذاته. والنتيجة التي تترتب على ذلك هي، الحرب الدائمة بين (الفرد والفرد) وحرب بين (الجميع ضد الجميع )، انها الحرب ليس في معنى حدوث القتال وحده، وانما هي الرغبة الملحة والارادة الثابتة في القتال، وهذا يعني عدم وجود السلام، وهناك الخوف الدائم من خطر الموت والحياة ستكون فقيرة وقصيرة.[٧٥] وفي حالة كهذه، ليس من شيء يعتبر ظالم او عادل، حيث لا توجد سلطة ولا قانون، (وحيث لا قانون لا ظلم)، ولاوجود للملكية، لاوجود لما هو لي ولا ما هو لك (وانما يختص لكل فرد بكل ما يستطيع ان يحوزه وطالما هو قادر على الاحتفاظ به) تلك هي حالة الطبيعة. وهذه الحياة لابد ان يهجرها الانسان والا تعرض للفناء، والانسان يملك مقومات الخروج من حالة البؤس والشقاء والخوف هذه، فبعقله السليم الذي يختار من بين النتائج انفعها وافضلها له، لقد ادرك الجميع انه لابد من شئ عام يزود بسلطة قادرة على تحطيم كل مقاومة فردية، انسان عام (اصطناعي).[٧٦] ونود ان نشير هنا، هو ان ادراك المعنى الحقيقي لحالة الطبيعة لدى هوبز، لا ينفصل عن الواقع الاجتماعي

والسياسي والاقتصادي لبلده وعصره في الفترة التي عايشها. كل ذلك كان تعبيرا عن الاضطرابات والحروب التي مر بها مجتمعه، والتي تسببت في هاجس الخوف لديه، فضلا عن انه وضح (الحركة) التي تحكم الطبقة البرجوازية في مجتمعه، ليجعل من واقعها الفعلي مبررا لوجود السلطة المطلقة، اذ ان البرجوازية الانكليزية في عصره، تركت النزعة الميركانتيلية وراءها، واضحى تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية امرا لا يلاقي القبول والترحيب في نظر هذه الطبقة الاجتماعية. وبعبارة اخرى، ان هذه الطبقة قد تحولت إلى النزعة الليبرالية التي تقوم على المنافسة التي تتحكم فيها المصالح الفردية بالدرجة الاساسية، هذه المنافسة تتخذ شكل الاحتراب الاقتصادي ما بين الافراد، يكون فيها البقاء لمن هو اقوى اقتصاديا، وينطبق ذلك على المستوى السياسي ايضا، لذلك اراد من السلطة الملكية المطلقة ان تكون الاداة الاساسية في ضمان توازن المصالح ،في اطار حالة المنافسة هذه.

**ثانيا : قوانين الطبيعة :**

يوجد عند هوبز حق الطبيعة وقوانين الطبيعة، لكن هذه المفاهيم ليس لها نفس المدلول عند قياسها لما موجود عند منظري الحق الطبيعي فحق الطبيعة يمت بصلة الى غريزة البقاء. ويعرفه بانه (حرية كل فرد في استخدام قدرته الذاتية وكما يشاء ومن اجل حفظ حياته الخاصة)، اما القانون الطبيعي فهو حكمة او قاعدة عامة مكتشفة من قبل العقل، وهي من جهة تمنع القيام بكل ما يمكن ان يقضي على الحياة، ومن جهة اخرى، عدم القيام بكل ما يعتقد انه يحفظ الحياة بصورة افضل .[٧٧]

ان على الانسان ان يخرج من حالة الطبيعة تم وصفها، وان امكانية الخروج يملكها الانسان، وهي قائمة جزئيا في اهوائه، وجزئيا في عقله . فبعض اهوائه تجعله يميل نحو السلام . اما العقل فأنه يوحي له ببنود السالم المناسبة ليستطيع من خلالها الاتفاق مع الاخرين. وهذه البنود السليمة والاحكام العقلية، يسميها القوانين الطبيعية. ويقول "لا تفعل للغير ما لا تريد ما يفعله لك". او بعبارة اخرى " عامل الناس كما تحب ان يعاملوك" .[٧٨]ان قوانين الطبيعة عنده تعني، مجموعة من القواعد يعمل وفقها كائن بشري عاقل لتحقيق منفعة لنفسه من خلال جميع الظروف التي يعمل في ظلها، ولا يميل به تماما للاندفاع باتجاه اهوائه. ولما يفترض ان الناس بوجه عام يتصرفون بهذه الطريقة، فان قوانين الطبيعة تقرر ظروفا افتراضية على اساسها تسمح سمات البشر الاساسية بإقامة حكومة مستقرة. انها لا تقرر قينا، لكنها تحدد الاسباب والمبررات ما يمكن اضفاء قيمة عليه في

المذاهب القانونية والأخلاقية[٧٩]. يقول ان ثمة مبدئين في الطبيعة البشرية، هما، الرغبة والعقل. فالأولى تدفع الناس الى ان يأخذوا ما يحتاج اليه الاخرون، وبذلك تلقي الشقاق بينهم، في حين يعلمهم العقل ان (يسارعوا بحل يناقض الطبيعة). فالعقل قوة تنظيمية او بعد نظر يصبح به السعي وراء الامن اكثر فعالية. اذا خامة الطبيعة البشرية، والتي يجب بناء مجتمع منها، تتكون من عنصرين متعارضين: الرغبة البدائية، النفور الابتدائي، الذين تنشأ منهما جميع البواعث والانفعالات، والعقل الذي بواسطته يمكن توجيه الفعل توجيها ذكيا نحو غاية المحافظة على الذات. وعلى قوة العقل التنظيمية هذه، يتوقف الانتقال من حالة الوحشية والعزلة، الى حالة الحضارة والاجتماع . وهذا الانتقال يتم وفقا لقوانين الطبيعة " قانون الطبيعة... هو ما يمليه العقل السليم الذي يعلمنا الاشياء التي يجب عملها، والاشياء التي يجب استبعادها، من اجل المحافظة المستمرة على الحياة" و" قانون الطبيعة قاعدة عامة يكتشفها العقل، ليمنع بها المرء من ان يعمل ما فيه دمار حياته "[٨٠]. ويذكر لنل تسعة عشر قانونا طبيعي، غير انه يؤكد بوجه خاص على قانونين، رئيسيين، ويتمثلان في البحث عن السلام، والدفاع عن النفس بكل الطرق المتوفرة. ومسالة المحافظة عن الذات تبقى النقطة المركزية في فكره، لكنها نع قوانين الطبيعة ستكتسب صيغة منظمة وتدفع الى التعاون لتكون اكثر فعالية ويؤكد انه على الانسان ان يكون" راغبا في السلام والدفاع عن النفس حين يكون راغبين ايضا، وان يكون مقتنعا بقدر من الحرية اتجاه الاخرين مساو لذلك القدر الذي يسمح الاخرين اتجاه" وهكذا نرى ان الشرط الرئيس الذي يقوم عليه الامن هو الثقة المتبادلة التي تجعل من امكانية التعاون بين الناس ممكنة. لكن هذا الأتفاق سوف لن يتبع ما لم توجد قوة لا تقاوم، قوة مجهزة بالعقاب وقابلة للمشاهدة العيانية وموضع تحسس . ذلك لأنه يقول"العقود بدون سيف ليست سولى كلمات"، وهذه القوة هي بلا شك (الدولة)، وان الناس الطبيعيين يقومون بتكوينها عن طريق حلف ارادي يعقد بينهم لتوفير الحماية لأنفسهم، والخروج من حالة الطبيعة .[٨١]

اذن ان اول قوانين الطبيعة هي السعي وراء السلام والمحافظة عليه، والثاني، ان يحصل على الامن والدفاع عن النفس من خلال التعاقد مع الاخرين، والثالث وهو ان يلتزم الناس بتنفيذ هذا العقد، وهنا لابد من وجود سلطة ذات سيادة . اما القوانين الاخرى التابعة للقوانين الثلاثة الاولى وتقتض ي ممارسة الاخلاص، وعرفان الجميل، والحشمة والتأدب، والنزاهة والانصاف، والاعتراف بالمساواة الطبيعية، وتجنب الوقاحة والكبرياء والعجرفة[٨٢]. وفي الحقيق، ان ما جعل فلسفته

اكثر النظريات السياسية ثورية في عصره، هو انه كان الممثل الكامل من مذهب المنفعة والمذهب الفردي . ذلك انه اذا كان السلوك البشري يتحدد بناء المصلحة الذاتية الفردية وفان يجب اعتبار المجتمع وسيلة مؤدية لهذه المصلحة . فسلطات الدولة وسلطة القانون لا يمكن ان يكون لهما مبرر، الا لانهما يوفران الامن والحفاظ على الذات للأفراد. وليس من سبب لطاعة واحترام السلطة الا الاعتقاد بأمكانية المجتمع السياسي من توفير المصلحة الذاتية للفرد، وهكذا فان المجتمع السياسي يجب ان يكون قائما على مجموع المصالح الذاتية المستقلة عن بعضها البعض. ولذلك يقال با ن مجتمع هوبز هو جسم مصطنع ، اي اصطلاح جماعي حول حقيقة، وهي ان افراد البشر يجدون ان مصلحة كل منهم تكمن في التعامل وتبادل الخدمات مع الاخرين. ولتدعيم فرديته ومنفعته ، يذهب هوبز لاعتبار ان الدولة ( وحش)، وما من انسان يحب او يحترم وحشا الا بقدر ما توفر للفرد من مصلحة ذاتية .[٨٣]

**ثالثا : اصل الدولة (العقد الاجتماعي )**

من اجل ان يضمن الناس المحافظة على ذواتهم الخاصة، فان القانون الاول والاساس للطبيعة يحتم على الناس ان يبحثوا عن السلام، وان يدافعوا عن انفسهم ضد اولئك الذين لا يمكن الحصول على السلام منهم. وتتجه بقية القوانين الطبيعية الى تأسيس شروط السلام. ويتكون المجتمع المدني عن طريق العقد الاجتماعي الذي يلزم فيه كل واحد من الجمهور نفسه، اي عن طريق عقد مع كل واحد مع الاخرين، الا يقاوم ذلك الشخص او المجلس الذي يعترفون انه صاحب سيادة . ان كل شخص لا يتعاقد الا بقصد ما هو خير بالنسبة له، وفضلا عن ذلك بقصد ضمان حفظ حياته[٨٤] .

ان الأمر يتعلق بعقود ومواثيق مبرمة بين البشر الطبيعيين فيما بينهم وذلك لمصلحة طرف ثالث لم يتعهد من جهته، اتجاههم باي التزام ويعتبر هذا الطرف الثالث، سواء كان (فردا ام جماعة) قانونيا(الشخص الوحيد) الذي يتحد فيه جمهورهم. اي كل واحد سينتقل حقه الكلي والمطلق على كل شيء (للشخص الوحيد) لكي يمتلك هو فقط ارادة مطلقة، وان كل واحد سيخضع مقدما ارادته ورأيه لإرادة ورأي السيد الذي تم تكوينه بواسطة هذا العقد بين الافراد[٨٥].

فضلا عن ذلك يؤكد هوبز على ان البشر الطبيعيين، بفرضهم على حريتهم هذه اللازمة للحياة في المجتمع المدني والدولة، انما رضخوا لاهتمامهم بتوفير وسائل بقائهم وحياتهم بشكل اكثر سعادة. ان الامر بالنسبة لهم يتعلق بتخليص

انفسهم من بؤس حالة الحرب التي تنجم عن رغباتهم الطبيعية، وعن عدم وجود (سلطة مرئية) تعمل على دفعهم لتنفيذ اتفاقيتهم. ان السلطة المرئية هي السيف، والمواثيق لا تشكل الا بالسيف. ان هؤلاء سينتظرون من السلطة المرئية حماية فعالة لقاء طاعتهم لها، لقد وضع هوبز امام انظار معاصريه العلاقة المتبادلة بين السيد ورعاياه. وان السيد اذا فقد لأي سبب كان قدرته على الحماية، فأن الرعية تعتبر نفسها عمليا في حل من كل واجب بالطاعة والاخلاص له(٨٦).

انطلق هوبز من مدرسة القانون الطبيعي، وعالج الموضوع بطريقة تغلب عليها النزعة الفردية، فكان يرى ان الدولة المدنية ترتكز على نظرية العقد الارادي الذي ينشأ بين الافراد، ففي نظره تعتبر الانانية الانسانية في صميم النزاعات وهي التي تدعو البشر الى التلاقي والاجتماع وليست الحاجة لتبادل الخدمات في المجتمع. وعندما يفتش الانسان عن المجتمع ليعيش فيه فليس بدافع الغريزة وانما بدافع مصلحته الخاصة، وقد تتولد المجتمعات نتيجة خوف الناس من بعضهم البعض، وليس نتيجة خير عندهم بالتعاون المتبادل، وذلك بسبب حالة الطبيعة التي سبقت تكوين المجتمع المنظم ويتوصل الى أن الدولة وحدها هي التي تحمي الأفراد وتؤمن الحماية لأموالهم واشخاصهم بموجب قوانين وهو ما لا يتوفر في الطبيعة(٨٧).

فالدولة تكونت لتأمين السلام، وأن العقد هو الذي أنتج الدولة التي يتقيد فيها الأنسان بواجبات لقاء تأمين حقوقه. ولكن هذا الاتفاق بشكله البدائي البسيط لا يكفي لقيام الدول، ولابد للبشر من أن يتحدوا ويبتعدوا عن العيش المنعزل، وأن يتخلوا عن قوتهم ففي ضل الدولة لا يحتاجون إليها. وهنا تنشأ سلطة الدولة على انقاض سلطة الأفراد وقوتهم. وستكون أمام عقد يؤدي إلى نشوء المجتمعات ويتخلى فيه البشر عن سلطانهم لمن يختارونه حاكما عليهم. ولكن يرى هوبز أن هناك عقدا واحداً. فالناس لا يتعاقدون مع الحاكم بل فيما بينهم فقط، ويبقى الحاكم خارج العقد وليس طرفا فيه ولا يلتزم بأي تعهدات (تأسيس سلطة مطلقة استنادا الى فكرة العقد) (٨٨) وبعبارة أخرى أن المجتمع لم يقم أولا ثم صاحب السيادة ثانياً، بل أقيما في أن واحد ولا يمكن التفريق بينهما، فالمجتمع قبل تعيين صاحب السيادة لم يكن سوى جمهرة من الناس لا يمتلكون نظاماً معيناً أو قانوناً يسري عليهم وإنما تكون المجتمع حين تعاهد الناس فيما بينهم على أن يختاروا رئيساً لهم تتمثل فيه أرادتهم وتتوحد رغباتهم وهو ما قصده هوبز في تفسير نشوء الدولة والمجتمع المدني (٨٩).

ويبدو أن الوحدة تتحقق عن طريق الرضا والارادات الكثيرة التي تتفق في موضوع واحد وهو الصالح العام لا تكفي لربط الناس معا لأن المجتمع السياسي (الدولة) يتطلب وحدة حقيقية (اتحاداً) وما يقوله عن شكل العقد المتبادل هو تنازل الفرد للأغلبية من حيث اتفاق كل فرد مع الأخرين على صناعة مجتمع واحد وحكومة واحدة، لذا فأن كل من يخرج عن الطبيعة داخلاً في المجتمع يجب أن يفهم أنه تنازل عن كل قوته لأجل أهداف وغايات تتوحد في المجتمع مع الأخرين لتشكيل الدولة[٩٠] .

**المطلب الثاني : تحليل الحكم**

**أولاً : أشكال الحكم والسيادة**

إن أشكال الحكم عنده تعود إلى مكمن السيادة. وحسب رأيه، ليس هناك أشكال مشوهة من الحكم، فالناس يربطون الانحراف بمصطلحات مثل : الطغيان أو حكم الاقلية، بسبب أنهم يكرهون الخضوع لسلطة ما. كما يستخدمون مصطلحات تنم عن الموافقة مثل: الملكية، أو الديمقراطية، إذا حبوا أيا منها فالسيادة توجد في أي نوع من الحكومات فالمهم هو البحث عن صاحب السيادة لتحديد شكل الحكم كما أنه لا يؤمن بوجود حكم مختلط، ولا يؤمن بنظام الحكم محدود أو مقيد، لأن السيادة مطلقة لا تقبل الانقسام أو التجزئة فلا بد من يملك القرار النهائي، ويستطيع تنفيذه، ويملك سلطة مطلقة، ويكون صاحب السيادة. [٩١]

كما يرى هوبز أن النظام الملكي هو أصلح الانظمة، لأن كل ما يؤخذ على الملكي قائم في غيره من النظم، وخاصة في الديمقراطية ، فلئن كان للملوك ذوو حظوة، فأن ذوي الحظوة في الديمقراطية أكبر عدداً، وأعظم خطراً. فضلاً عما للملكية من مزايا تنفرد بها. [٩٢] لقد أدرك مدى القوة التي يستطيع ان يضيفها على السيادة المطلقة وغير القابلة للانقسام إذا ما أقامها على أساس من العقد. ويرى أنه قبل أن يعقد العقد الذي انبثقت عنه الدولة، كان لابد ان يكون قد وجد شكل من أشكال الهيئة الموسعة لتكون الجهة المؤهلة الوحيدة لتقرير نقل الحقوق الطبيعية، والذي بدلالته فقط كان ينبغي أن ينظر إلى القرار الذي اتخذ بأكثرية الاصوات باعتباره التعبير الحاسم عن أرادات الافراد في هذه الهيئة. [٩٣] انه كان ينطلق من حقيقة قانونية مؤداها، أن الفرد وحده هو الذي يملك الحقوق ويستطيع ان يتصرف بها. ولكن منذ ان يتم انخراط الافراد في المجتمع السياسي (الدولة) فأن حقوقهم سوف تقل إذا لم تختف، ومثله التصرف بها، إذ أن فرداً ما سيعمل باسم هذا المجتمع كله باعتباره وكيله المفوض أو ممثله. وإذا لم يوجد مثل ذا الوكيل فسوف

لن يكون للمجتمع السياسي وجود فعلي، وإنما سيكون مجرد جمع في ظله كل واحد يقرر بطريقته الخاصة. لذلك نرى انه وبز يؤكد بأن المجتمع مجرد خرافة، إذ أنه لا يعني الا الحاكم، فإذا لم يكن هناك حاكم، فسوف لن يكون هنالك مجتمع، وهذا يصدق بشكل خاص بالنسبة للدولة. إن هوبز لم يميز ما بين المجتمع والدولة، وان أية تفرقة بينهما مجرد خلط، وهكذا يرى الامر نفسه على أية تفرقة بين الدولة وحكومتها. فإذا لم تكن هناك حكومة ظاهرة فلن تكون هناك دولة ولا مجتمع، وسيكون هناك حشد من الناس، وينتج عن ذلك أيضاً، ان أية تفرقة بين القانون والاخلاق خلط، ذلك ان ليس للمجتمع سوى صوت واحد يتكلم به وارادة واحدة يستطيع فرضها، تلك هي إرادة الحاكم الذي يجعله مجتمعاً. وهذه النظرية عن الهيئات المتحدة تمكن أيضاً في جذور مذهب الحكم المطلق عند هوبز فعنده ليس ثمة خيار الا بين السلطة المطلقة والفوضى الكاملة، بين حاكم قادر وعدم وجود مجتمع. ذلك انه لا وجود لكيان اجتماعي الا عن طريق السلطات التي ينشئها، وليس لأعضائه حقوق الا بطريق التفويض، ومن ثم يجب ان تتركز في الحاكم كل السلطة الاجتماعية. والقوانين والاخلاق هي إرادته غير محدود او لاتحد منه سوى قدرته وذلك لسبب هو أن لا وجود لسلطان آخر الا بإذنه. وأوضح أيضاً أن السيادة لا تقبل الانقسام والتحويل، ذلك أنه ما أن يكون سلطانه معترفاً به وتوجد دولة، او لا يكون معترفاً به وتوجد فوضى. وجميع سلطات الحكم الضرورية كامنة في الحاكم، مثل التشريع وإقامة العدل واستخدام القوة وتنظيم هيئات الحكم الأدنى مرتبة. (٩٤)

**ثانياً : القانون والحقوق الفردية:**

يرى هوبز، مهما تكن حقيقة العقد، فأن الذي يترتب عليه هو ان صاحب السيادة سيمسك (بسيف العدل) و(سيف الحرب). ولكن في تملكه لهذين السيفين ينبغي وجود صاحب سيادة واحد. انه الذراع التي تضرب والرأس الذي يقرر. ان حق السيف يمنح في الواقع صاحب السيادة القدرة على استخدام القوة التي تحت تصرفه، وذلك طبقاً لرغبته دون ان يقدم حساباً أمام أي أحد. وبمقدور من يمسك بالسيف أن يقرر متى يشاء استخدام هذه القوة. وإذا ما وجد من يقرر إلى جانب من ينفذ فأنه سيكون من الوهم الكلام عن السيادة.

وصاحب السيادة هو الذي يحدد ما هو لي وما هو لك، ما هو عادل وما هو غير عادل، وما هو شر وما هو خير. (٩٥) ومن صفات السيادة المطلقة التي يتمتع بها الحاكم، هي القدرة على إصدار القانون ونقضه. فالسيد المطلق هو صاحب

السلطة التشريعية ولا يمكن إصدار قانون عند هوبز لا يتعدى إصدار الامر من قبل الحاكم الذي يتمتع بالسيادة المطلقة في الدولة. فالقانون المدني بمعناه الصحيح ليس سوى الامر الذي يصدره صاحب السلطة لتنفيذه من قبل رعاياه. وبذلك لا يكون القانون بالنسبة لكل فرد من أفراد الرعية سوى تلك القواعد التي يضعها الحاكم صاحب السيادة ويحدد فيها ما هو خير وعدل فيأمر به، وما هو شر وظلم فيحظره. [٩٦] أنه ميز بين القانون الطبيعي والقانون المدني، فأعتبر الاول هو ما يميله العقل، أمام الثاني فهو الذي تقف وراءه قوة تعمل على تنفيذه. فقانون الطبيعة هو قانون مجازي، اما جوهر القانون المدني هو تضمنه جانب الأمر والحقيقة أن السلطة التي تتولى التنفيذ هي التي تجعل الأمر ملزماً، فالقانون هو قانون من يملك السلطة. أما بالنسبة للعرف، ان استمراره يعود إلى إقرار الحاكم ضمنياً به، ولا يصبح له قوة القانون الا إذا امر به صاحب السلطة. [٩٧] وبهذا الصدد يقول هوبز ((القانون المدني، والقانون الطبيعي ليسا بصنفين مختلفين، وإنما هما بالأحرى، جزءان مختلفان للقانون، جزء مكتوب يدعى قانون مدني، وجزء آخر غير مكتوب يدعى قانون الطبيعي. ولكن الحق الطبيعي أي حرية الطبيعية للإنسان من الممكن أن تضيق وتقلل بموجب القانون المدني. بكلمة أخرى ان المشرع لا يملك غاية أخرى الا وضع تقييدات من هذا القبيل بدونها لا يمكن ان يقوم اي سلام. والقانون لم يوضع في العالم لغرض أخر غير تحديد الحرية الطبيعية الخاصة بالأفراد، وذلك ليس فقط بأن لا يضر أحدهم الاخر، وإنما كذلك لضمان تعاونهم فيما بينهم واتحادهم ضد العدو المشترك)). [٩٨]

ولكن أين هي حقوق الإفراد؟ ان الحقوق الطبيعية كانت قد توارت بتنازل الافراد عنها بموجب العقد الاجتماعي لصالح صاحب السيادة ، وبالتالي فأن الحقوق التي يتمتع بها الأفراد هي الحقوق التي يقرها صاحب السيادة بإراداته، وخارج هذه الإدارة لا توجد هناك حقوق يستطيع الأفراد التمسك بها. فحق الملكية، وهو من أهم الحقوق المدنية، لا يأتي الا عن الدولة، فقبل ان تنشأ الدولة كان كل شيء يعود إلى الجميع، ولكن مع نشوئها تغير الحال، وان الملكية نشأت مع نشوء الدولة، وأصبح لكل واحد ما يمكن التمسك به، ولكن باسم الدولة وعن طريقها، فالدولة هي التي تؤسس الملكية، وكل اضرار بالدولة هو أضرار بالملكية. [٩٩] وبعبارة أخرى، أن تنظيم الملكية يعتبر مظهراً من مظاهر ممارسة السيادة الكاملة من قبل الحاكم، وبالتالي فأنها تنازلا من جانب الحاكم صاحب السيادة، فقبل ان يكون هناك سلطان مشترك وسيادة لم يكن يستطيع ان يتمتع بأي شيء في حوزته

بشكل آمن، ذلك لان كل فرد يتمتع بالحق الطبيعي المساوي لحقوق الاخرين في كل شيء ، أما بعد نشوء المجتمع المدني ، يصبح من السهل توزيع الاملاك على الافراد بموجب القوانين الصادرة من الحاكم. فالقانون يسمح للفرد ان يعرف ما له من حقوق وان يتمتع ويتصرف بها بلا خوف او قلق. [١٠٠] هكذا يرى هوبز بالنسبة (لحرية الفكر) ، وان كل العلوم سوف تكون تحت وصايا الدولة، سواء متمثلة في شخص رئيسها أو في شخص الحكام الذين فوضوا من قبله. وذلك بسبب ما تقتضيه من مسببات عقلانية انسانية، قد تكون صالحة وقد تكون خاطئة، وإذا كانت خاطئة تسبب الاضطراب بين أفراد الشعب، ولذلك من الضروري ان يوجد من يضع حداً لذلك، كي لا يؤدي إلى تهديد السلام العام، ومن هنا يأتي الدور الواسع للدولة في ميدان الثقافة والتربية. [١٠١] ويمكن القول، أن ما تنازل عنه الافراد بموجب العقد، هو ليس الحقوق السياسية فقط، وإنما تنازلوا كذلك عن الكثير من الحقوق المدنية، مثل حق الملكية وحرية التفكير، كل ذلك مقابل السلام والدفاع عن النفس. وبصدد الحرية، فأين مكانها في فكر هوبز؟

ويرى هوبز أن الانسان يتمتع بالحرية في الحدود التي لا توجد فيما فيها قوانين، وعليه فالحرية ((سكوت القانون)) على حد تعبيره. غير ان الحرية بهذا المعنى لا وجود لها، وذلك بسبب افتقاد الانسان لحرية الارادة. لذا يجب ان لا ننده‍ش من قول هوبز ((ان الحرية تتوافق مع إرادة المتوحشين أكثر مما تتوافق مع إرادة الناس. ان الارادة والرغبة ما هما الا شيء واحد منظور اليه من جوانب مختلفة)). ان الحرية في نظرة قد تفيد معنى غياب عوائق الحركة، فالمياه تنحدر من التل بالضرورة عندما ينعدم وجود العوائق التي تحول دون هذا الانحدار فالمياه في هذه الحالة تتمتع بالحرية. كذلك الحال بالنسبة للإنسان فهو يتمتع بالحرية عندما لا يوجد عائق يمنع تحقق ضرورة من الضرورات الانسانية. ان حالة الطبيعة هي الحالة التي انعدمت فيها الحرية بسبب حالة الاحتراب التي شكلت عائقاً امام حركة الانسان وان الانتقال الى حالة المجتمع المدني، قد أقترن بتحقيق الحرية، بقدر ما أقترن وجود المجتمع المدني بوجود الدولة أو صاحب السيادة الذي راح يعمل من اجل ازالة عوائق الحركة بقضائه على الاحتراب عن طريق القوانين التي تم وضعها ومن هنا تصبح المقولة القائلة بأن القوانين الوضعية هي تعبير عن الحرية هذا إذا لم تكن اداتها الرئيسية. [١٠٢]

ويمكن القول، بأن هوبز، يرى بأن دائرة الحرية قد تضيق مع وجود الدولة ولكنها تضيق باعتبارها نشاطاً خارجياً، اما على مستوى النشاط الداخلي فأن الحرية

قد تضيق من أجل تحقيق نموذج اخر من الحرية يتمثل بغياب عوائق الحركة، والحرية التي قصدها هوبز، هي حرية التصرف، اما حرية الارادة اي الحرية بمعناها العام، فهي موضع استهجان عنده، لذلك انتقد الفلاسفة القدامى الذين مجدوا الحرية، وبحسب رأيه، أنهم بعملهم هذا أفسدوا الناس وقادوهم إلى استحسان الاضطرابات باسم الحرية.

**ثالثاً : الدين والكنيسة**

يرى هوبز أن هناك مرضاً خطيراً للغاية، يترجم ضرره العميق بتنافس وتعارض السلطتين: السلطة المدنية أو الزمنية، والسلطة الروحية، وأن كل فرد من الرعية سيكون لديه سيدان، يريد كل منهما أن تطاع أوامره مثل القوانين، وان الحكم الزمني والحكم الروحي هما كلمتان أدخلتا في العالم لكي يخطئ الناس في تحديد سيدهم الشرعي. (١٠٣)

وقد بات الكتاب المقدس منذ النهضة موضوعاً لفقه اللغة والنقد النصي، أي موضوع معرفة طبيعية، هذا إذا لم يكن قابلاً كليا للاختزال إلى تأكيدات العقل ، كما بينت الازمات الدينية والسياسية منذ حركة الاصلاح الديني في أروبا خطر انقسام السلطات، هذا الانقسام الذي يولد الفوضى وغياب الامن والموت، وان المسألة الشائكة في عصر هوبز، هي مسألة تعدد الينابيع.

ان ارتجاجات الانسانية، والاصلاح الديني، والهزات السياسية المرتبطة بها قد حفزت بروز نزاعات محتملة بين الكتاب المقدس، والتراث والعقل والالهام الفردي، وهناك ثمة سؤال يطرح نفسه حين يكون مقطع توراتي غامض، من يفسره؟ فإذا كان في وسع كل واحد ان يفعل ذلك، سيكون ازاء تعدد القراءات وكيف يتم الاختيار فيما بينها؟ هل سيتم الاستنجاد بالعقل؟ او سيتم القرار بأن أحدى هذه القراءات اصوب من غيرها؟ او من حق كل واحد (كما يقول هوبز) ان يؤسس بدعته الخاصة، المختلفة حول تفسيره؟ يقول البعض ان هذه الامكانية الاخيرة تقود بسرعة إلى الحرب الاهلية، او على الاقل الفوضى الدائمة. ويرى هوبز، ما ان يعتقد أحد المؤمنين ان في وسعه ان يجد في توراته تبريراً لعدم دفع الضرائب المتوجبة عليه، وعصيان الدولة أو حمل السلام لبناء دولة أخرى (وأن يقنع بذلك قراء آخرين) ما أن يستطيع إقناع نفسه بأن خلاصه مرتبط بهذه القراءة، فأن مسألة الينابيع (المصادر) التي نطلع بواسطتها على الكلام الالهي ستؤدي إلى مشكلة كبيرة في كل لاهوت وكل سياسة، وبذلك يناقش هوبز ويحاول ايجاد حل معرفي وسياسي لكيفية التوفيق في معرفة موحدة بين المصادر المختلفة التي تزعم كشف كلام الله

لنا، أي تحليل يفضي إلى التمييز بين الخطاب المنسوب مباشرة إلى الله بالذات، والخطاب الذي يدور حول الله (تعاليم الدين). [١٠٤] وفي هذه المسألة يخصص هوبز فصولاً مطولة من كتابه (الليفياثان) لمناقشتها. حيث تطرق لمناقشة نصوص توراتية ومسألة النبوة والوحي والكلام ليصل إلى مملكة المسيح والكنيسة وسلطانها ومسألة قانونية سلطة الكنيسة؟ ومن يملك سلطة تفسير الكتاب المقدس؟ ومن له الحق في تحديد قانونه الديني، ويستطرد هوبز في عرض المسألة حسب منهجه ويتساءل ((هل للملوك المسيحيين والجمعيات ذات السيادة في الجمهوريات المسيحية السلطة المطلقة في أرضهم، وهل هم موضوعون تحت سلطان من دون وسيط، أو أنهم يخضعون لنائب واحد للمسيح اقامته الكنسية الجامعة لمحاكمتهم، وادانتهم وخلعهم واعدامهم، حسبما يقدر هذا الاخير مفيداً او ضروريا للخير المشترك؟)) وكان جواب هوبز: (ان البابا أو اي مجمع أو سلطة فوق القوميات) لا يمكنه ان يمتلك حقوقاً كهذه من دون حرمان الاسياد سلطتهم وتحويلهم بذلك إلى مرتبة الرعايا. [١٠٥] إلى أن تصل نظريته بعملية اخضاع الكنسية للسلطة المدنية الى نهايتها. وبالنسبة إلى رجل مثله يؤمن بالمادية، تصبح المسائل الروحية وحي من الخيال، لكنه لا ينكرها ويقول ((انه بخفايا ديننا كما هو الشأن بالنسبة إلى إقراض الدواء للمرضى التي اذا ابتلعت بكاملها كانت لها فضيلة الشفاء، ولكنها إذا مضغت فالغالب ان تلفظ ثانيا دون ان يكون لها تأثير)) وعلى ذلك فالكنسية عنده مؤسسة فحسب، على غرار اية مؤسسة يجب ان يكون لها رأس ، والرأس هو الحاكم. [١٠٦]

فالكنيسة تتكون من مجموع المسيحيين المؤمنين والمتحدين مع بعضهم البعض في شخص سيد يخضعون له، ويجتمعون نزولاً عند أوامره، وبما ان هؤلاء المسيحيين هم الافراد الذي يكونون الدولة، فلا يمكن ان يكون لهم في نفس الوقت سلطة روحية وسلطة زمنية. فالدولة والكنيسة هما شيء واحد، أي جهاز واحد، ارادته هي ارادة الحاكم السيد. [١٠٧] ويرى هوبز، لابد ان يكون لكل مسيحي حق في تفسير القوانين التي يتضمنها الكتاب المقدس، فيفسر تلك القوانين وفق ما يهديه اليه عقله، وستكون نتيجة حتمية لذلك هي أن تتعدد القوانين المسيحية بقدر عدد الذين يدعون المسيحية، وهو شيء يؤدي إلى الفوضى وتفترض نظريته حق كل فرد في ذلك التفسير، وهو مظهر من مظاهر الحق المطلق للإنسان في حالة الطبيعة، لكنه انتقل مع غيره من الحقوق بمقتضى العقد إلى الشخص الاصطناعي (دولة) في شخص صاحب السيادة. وهكذا يصبح

صاحب السيادة بمقتضى العقد هو ارادة الدولة وارادة الكنيسة، وهكذا تنقلب مملكة السماء بفضل العقد الى المملكة مدنية ذات سلطة واحدة هي سلطة صاحب السيادة. [١٠٨] وللاحتفاظ بالسيادة كاملة، يجب ان لا تشارك اية سلطة كانت سيادة الحاكم المطلقة. لذا يجب خضوع الكنيسة وسلطتها للدولة أنها لا تمتلك (القوة على العقاب على أي شخص لا يؤمن بها، لكن السلطة المدنية لها الحق في العقاب واستخدام القوة، إذا انحرفت الرعية عن القانون)، كما انه يرى ضرورة طاعة الحاكم دون الكنيسة، إذ أن في الخروج عن الحاكم يكون ضرره على جميع الافراد، في حين خروج الشخص عن الكنيسة لا يحدث ضرراً على المجموع. [١٠٩]

**الاستنتاج**

لقد كان هوبز يبحث في ايجاد علاج شافي للبشر يتلاءم وطبيعتهم، ويتكفل بالقضاء على كل اسباب الفرقة والانقسام والصراع فيما بينهم، وبالتالي يضمن لهم العيش بسلام واطمئنان. وبعبارة اخرى، اراد ان يرشد البشر إلى الطريق الامثل للحياة والتعايش، وذلك عن طريق تقديمهُ لمنهج علمي مبني على برهنة الاشياء ليقنع البشر بأنه السبيل الافضل والوحيد لتحقيق ما يسعون اليه. كما ان انطلاقته كانت متأثرة بالوضع العام لعصره الذي تطورت فيه الكثير من العلوم ولا سيما الطبيعية منها، وسيطر فيه مبدأ السببية أو العلية، وكان المبدأ العام الذي أنطلق منه هو دمج علم النفس بالسياسة والعلوم الطبيعية، وذلك لمعرفة العلل والاسباب التي تؤدي إلى استنباط النتائج والتي بواسطتها يمكننا التنبؤ بما سيحدث من نتائج. لقد جاءت فلسفته الاخلاقية متناولة دراسة نزاعات البشر وانماط سلوكهم ، وذلك من خلال دراسة حركات العقل، لمعرفة اسبابها، باعتبارها حركات مختلفة تتولد في عقول البشر بفضل تأثيرات معينة. ولمعرفة نتائجها، باعتبارها حركات ونشاطات ينتج عنها استجابات وردود أفعال تتجسد في شكل السلوك. لقد كان ماديـاًن ويرى ان كل من هو موجود هو مادة، وكل ما يتغير هو حركة، والمبدأ الاول والاساس والنهائي لكل شيء هو المادة والحركة او المادة التي هي في حركة. وحتى العمليات الفعلية هي أيضاً حركات في أدمغتنا وقلوبنا وسائر اعضائنا.

والدولة وكل النظم الانسانية هي تركيبات من حركات وكل حادث يجري في الكون حركة. ويرى ان استخدام الانسان لعقله وتفكيره في الرغبات التي ستراوده في المستقبل ، يتطلب منه معرفة قدرته على تحقيق تلك الرغبات، حيث أن كل تصور للمستقبل هو تصور لقوة قادرة على تحقيق شيء ما، وأهم الوسائل التي تمكن الانسان من الحصول على ما يرغب فيه هي القوة. وبما ان القوة وسيلة عامة في

متناول الجميع، فالجميع يرغبون بها، ويؤدي ذلك إلى التنافس ، وتتطور الرغبة في القوة من وسيلة آنية إلى رغبة دائمة لتكون رغبة موازية أو مساوية للرغبة في الحياة والسعادة، ولا تزول الا عند الموت. ونستطيع القول حول الطبيعة البشرية وعلاقاتهم، فقد أكد على رغبة البشر في اكتساب القوة من اجل الحصول على عيش رغيد، الرغبة في الاستحواذ على المزيد من القوة. حيث ان قلة الخبرات والوسائل التي تكفل للبشر العيش الرغيد، ولغرض استمرار حركاتهم الحيوية، يدفعهم للحصول على كل الاشياء التي يعتقدون أنها تحقق لهم هذه الغاية غير أن هذه الوسائل والاشياء محدودة، لذلك يتولد الاحساس بالحاجة الى التماس القوة والسعي من اجلها كوسيلة للحصول على تلك الاشياء هذه المسألة هي أحد الاركان الاساسية في نظريته بخصوص تكوين الدولة واضفاء عليها جانب القوة، من حيث ان قوة الدولة هي التي ستضع حداً وتوقف الرغبة لدى البشر للاستزادة من القوة، كما يمكن الاستفادة من قوة الدولة لتحقيق رغباتهم والاستمرار في حركاتهم الحيوية، أي ان اضفاء الطابع المؤسس ووجود القانون ورمز للسيادة والحاكم الضامن لتحقيق العيش الرغيد، هو الكفيل بالوقوف ضد شرور البشر وانانيتهم واستمرارهم في الحصول على المزيد من القوة. لذلك جاءت مقولته ((ان الدولة شر لا بد منه والملكية المطلقة شر لابد منها)). وهناك مسائل اخرى خاضعة للنقاش وهي انه هل يمكن ان تنعكس هذه الرؤيا على المجتمع الدولي وما يعيشه من صراع؟ او هل يمكن ان تنطبق نظريته في الصراع التي وصف بها البشر في حالة الطبيعة على المجتمع الدولي؟ وهل يمكن ان فلسفته في الصراع قد ساعدت على نشوء نظرية القوة في العلاقات الدولية؟ وهل أن رؤيته في انشاء الكومنولث وتبرير السلطة المطلقة له، تنعكس على الرؤية الواقعية في نظرية العلاقات الدولية ؟ وهل ان رؤيته للقانون الطبيعي يتطابق وما يجري اليوم في تفسير الحقوق والواجبات والالتزامات الدولية؟ وهل أن التضارب بين وجهات نظر المثاليين والواقعيين حول نظريات العلاقات الدولية قد تأثرت بالفلسفة الهوبزية؟ وهل ان المصالح العليا للدول، وضمانها يتطلب الحصول على المزيد من القوة ؟ وهل ان القانون الطبيعي والذي هو أصل ومصدر القانون الدولي العام يستطيع ان يحدد الرغبة في الاستزادة من القوة لدى الدول؟ وهل ان منطق القوة أم منطق القانون هو السائد في العلاقات الدولية؟ وهل ان الحق في استخدام القوة وما أنتج العقل في عصر الحداثة من وسائل قوة واكتشافات فاقت التصور (القوة النووية والهيدروجينية والجرثومية ... الخ) يمكن استخدامها من أجل ضمان قوة الدولة وانتزاع الاعتراف من الدول

الاخرى بذلك؟ وهل أن القوة اليوم هي الوسيلة الوحيدة الفعالة في الصراع (الداخلي من أجل سلطة) أو على المستوى الاقليمي أو الدولي؟ وهل أن القوة بهذا الشكل اليوم وما وصلت اليه من تطور يمكن استخدامها وبشكل عام دون وجود محددات لذلك؟ هذه الاسئلة، واسئلة اخرى تطرح هي قيد النقاش والدراسة من حيث الطبيعة البشرية وكيفية تحول القانون الطبيعي إلى قانون وضعي، وشكل السلطة حسب نظرية هوبز وانعكاساتها على المجتمع الدولي والانتقاد الذي توجهه مدرسة ما بعد الحداثة في نظريات الحداثة. لقد كان معجباً بالهندسة وبالمنهج الاستنتاجي للرياضيات واخذ يفسر انطلاقاً من الحركة العالم النفسي والعالم الاخلاقي والعالم السياسي مثلما يفسر العالم الطبيعي وقد سيطر على مبدأ السببية بملاحظة الأسباب والنتائج وتشابكها وكما رأينا ان الدولة عنده هي من صنع الافراد بهدف رعاية مصالحهم ومضان امنهم وسلامهم وقد كلفه ذلك للتخلي كل فرد منهم عن حقه في كل شيء للحاكم الذي اصبح صاحب الحق في كل شيء لكي يتمكن من تحقيق الهدف من وجوده وذلك ينبغي على الحاكم التقيد ببعض الواجبات لتحقيق الغاية من التعاقد الاجتماعي للأفراد وهي الامن والسلام لهم وأولى واجبات الحاكم ان يؤمن لرعاياه حرية بحيث لا تؤدي إلى الحاق ضرر بالسلام وذلك عن طريق اصدار القوانين كما من واجبات الحاكم ان يضمن لرعاياه المساواة في القانون وامام الاعباء العامة والتعليم والتربية ويكافح البطالة ويأخذ بالعاجزين عن العمل على عاتق الدولة وان يتنازل لرعاياه عن ملكيات خاصة كافية، ويصون توزيعها أي أن يفعل الحاكم ما هو خير لرعاياه وما هو ضروري للسلام لان الافراد مقابل هذا نقلوا حقهم العام له كصاحب سيادة، فضلاً عن ذلك فمن واجبات صاحب السيادة الحفاظ على سلطاته سليمة لأنها هي التي تمكنه من اداء وظيفته والواجب العام الذي يقع على عاتقه هو توفير الامن للشعب، وهذا لا يعني امن الحياة فقط وانما كل اشباعات هذه الحياة أيضاً والتي يمكن لكل واحد ان يتمتع بها بعد ان يكون امتلكها بشكل شرعي دون ان يلحق ذلك أي خطر او اذى بالدولة، وينجم عن هذا الواجب العام بعض الواجبات الفرعية، ذات الطابع الايجابي مثل الرقي بالازدهار المادي من خلال تشجيع كل فروع النشاط وتأمين عدالة متساوية للجميع وسن القوانين الجيدة وواضحة وضرورية.

**الخاتمة**

لقد كانت الاحداث المهمة التي سبقت وعاصرت حياة هوبز، وعلى كافة الاصعدة والمجالات بالغة التأثير على ثقافته، ولعبت دوراً مهماً في تحديد اتجاهه

الفكري والفلسفي ، فالحرب الاهلية التي شهدها بلده والحروب والنزاعات التي كانت سائدة في القارة الاوربية وقتذاك، جعلته يبحث لايجاد اسباب وطبيعة تلك الحروب والصراعات السياسية والدينية والمذهبية ومن ثم اخذ الحلول المناسبة لها.

ان فلسفته السياسية هي أروع بنيان لا يحتمل المقارنة، انتجته فترة الحروب الاهلية الانكليزية كما ان فلسفته كانت واضحة المعالم في حجمها المنطقية واتساقها والمشاهدة السياسية الواقعية. لقد بحث في الدوافع الفعلية التي تحرك الناس في الحياة المدنية، وتوصل من خلال اسلوبه المنهجي الى ان مبدأ المنفعة هو ذلك المحرك الرئيس المباشر. هذه هي كانت فردية هوبز، والتي مثلت العنصر الحديث في عصره من حيث الوضوح الذي تناول فيه مبدأ المنفعة. فبعده بقرنين بدت المصلحة الذاتية في نظر معظم المفكرين دافعا أشد وضوحاً، وبدت المصلحة الذاتية المستنيرة علاجاً اجتماعياً أكثر قابلية من أي شكل من أشكال العمل الجماعي، وسلطة الحاكم المطلقة، كانت المكمل الضروري لفرديته.

ان الحاكم والمحكومين كل منهم تحركه مصالحه الخاصة. ليس هناك مكان وسط بين جموع البشر كحشد من الكائنات المنفصلة، وبين الدولة كقوة خارجية تحافظ على تماسكها بصورة معرضة للتهديد، وذلك عن طريق العقوبات التي تكمل الدوافع الفردية. وتختفي كل انواع التجمعات الوسيطة التي تشكل تهديداً لسلطة الدولة. وهذه تشكل نظرية طبيعية في عصر شهد تحطم عدد كبير من المؤسسات الدينية ومؤسسات الحياة الاقتصادية والدينية، وشهد ذلك العصر ظهور دول قوية اصبح نشاطها المميز وضع القوانين وزيادة السلطة والاعتراف بالمصلحة الذاتية على انها الدافع المسيطر في الحياة. كل هذه الامور جعلها هوبز مقدمات لمذهبه وتابعها بمنطق لا يرحم فكانت المقياس الصحيح لفراسته الفلسفية وعظمته كمفكر سياسي.

ان المنفعة التي قدمها هوبز من خلال القوانين الطبيعية التي أوردها، وكل الواجبات الاجتماعية والسياسية، او الالتزامات المستمدة من حق الطبيعة (حق الفرد في المحافظة على ذاته). والى الحد الذي ترى به الليبرالية الحديثة ان كل الالتزامات الاجتماعية والسياسية مستمدة من الحقوق الفردية للإنسان، ويتكون في خدمتها. فأنه قد ينظر إلى هوبز على أنه مؤسس الليبرالية الحديثة.

يقول هوبز ان لا شيء يصنعه القانون يمكن ان يكون خالداً. ومع ذلك يمكن ان تنشأ الدول بمساعدة مهندس فائق القدرة بدرجة تمنع اضمحلالها بسبب الفوضى الداخلية. ويصف تلك القوى الموجودة في طبيعة الانسان التي تميل باستمرار نحو

انحلال السلام والنظام المدني. ومع ذلك يجب الا تعوق طريقة الاصلاح الاخلاقي هذه القوى. أي عن طريق اللجوء إلى ما ينظر اليه على انه الجانب الاكثر نبلاً في طبيعة الانسان ويلجأ هوبز بدلاً من ذلك إلى المصلحة الذاتية المستنيرة، ويعتمد على أساس معرفة آلية الانفعالات وإداراتها على ابتكار الأنواع الصحيحة للمؤسسات، وليست هناك ضرورة بالنسبة له، لأن يميز أنواع الشعوب ومستوياتها لكي يحدد نوع الحكومة الذي يناسب كلا منها، لقد كان يهدف إلى ابتكار تخطيط الحكومة يصلح لكل الازمنة والشعوب والاماكن واستطاع عن طريق بناء صرحه على ادنى عامل لتحريك السلوك البشري ان يتوقع انه يقوم راسخاً وثابتاً في كل مكان وكل زمان. فعندما تبدأ الدول في الانحلال ليس عن طريق قوة خارجية وانما عن طريق صنوف من الفوضى الداخلية، فأن الخطأ لا يكون من الناس من حيث أنهم مادتها ، بل من حيث أنهم صانعوها ومنظومها.

يقول هوبز: ((أنزعوا الطاعة من أي نوع من أنواع الدول، وسترون كيف سيتحلل هذا الشعب في مدة وجيزة وسيكتشف اولئك الذين يتمردون بقصد اصلاح الجمهورية، انهم بذلك يهدمونها)). هو لم يميز بين الدولة، ولم يفرق بين الدولة وحكومتها، فإذا لم تكن هناك حكومة ظاهرة، فلن تكون هناك دولة ولا مجتمع، بل حشد من الناس بدون رأس. اراد من السلطة ان تكون مطلقة، فليس هناك من خيار، الا بين السلطة المطلقة او الفوضى الكاملة. فعلى اساس مبدأ المنفعة يكون الحكم، فأي حكم أفضل من الفوضى ما دام يستطيع المحافظة على السلام والنظام، وهو الغرض الاساس من قيام المجتمع، وان الحكومة القوية أساس وجود المجتمع والدولة، بحيث تقوم لخدمة الافراد وتؤمن السلام، وحماية الارواح والممتلكات، لان ذلك هو المبرر الرئيس لقيام الدول والحكومات.

**الهوامش:**

[١]- محمد محمد صالح، تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية (١٥٠٠- ١٧٨٩)، مطبعة الحافظ، بغداد، ١٩٨١، ص٢٦٤.

[٢]- المصدر نفسه، ص٢٦٧.

[٣]- عبد الرحيم عبد الرحمن، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، ط٣، ١٩٨٦، ص٩٢-٩٣.

[٤]- محمد محمد صالح، المصدر السابق، ص٢٧١- ٢٧٢ .

[٥]- روبرت بالمر، تاريخ العالم الحديث، جـ١، ترجمة محمود حسين الأمين، مؤسسة فرانكلين للنشر، بغداد-نيويورك، ١٩٦٤، ص٢٥٣.

[٦]- عبد الرحيم عبد الرحمن، المصدر السابق، ص١٠٩.

[٧]- روبرت. بالمر، المصدر السابق، ص٢٥٧.

[٨]- عبد الرحيم عبد الرحمن، مصدر السابق، ص ١١٠.

[٩]- ميلاد القرحي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، الجامعة المفتوحة، ليبيا، ١٩٩٥، ص٧٨.

[١٠]- روبرت. بالمر، المصدر السابق، ص٢٥٩.

[١١]- جلال يحيى، معلم التاريخ الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦، ص٢٥.
[١٢]- ميلاد القرحي، المصدر السابق، ص٣٤.
[١٣]- جلال يحيى، مصدر سابق، ص٧٩.
[١٤]- محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص٣٧٤ – ٣٧٨.
[١٥]- جلال يحيى، مصدر سابق، ص٩.
[١٦]- المصدر نفسه، ص١٠.
[١٧]- محمد محمد صالح، مصدر سابق، ص٣٣٧ - ٣٤٠.
[١٨]- المصدر نفسه، ص٢٧٩ – ٢٨٦ .
[١٩]- مجموعة مؤلفين، موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة، توفيق سلوم، دار فارابي، بيروت، ١٩٨٩، ص١٦٦.
[٢٠]- المصدر نفسه، ص١٦٦.
[٢١]- نبيل عبد الحميد عبد الجبار، توماس هوبز ومذهبه في الأخلاق والسياسة، دار دجلة، عمان، ٢٠٠٧، ص٢٣.
[٢٢]- موسى إبراهيم، معالم الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص٨٧.
[٢٣]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٢٤ – ٢٥ .
[٢٤]- عبد الرحمن بديوي، موسوعة الفلسفة، جـ٢، مؤسسة ذو القربى ، أيران، ٢٠٠٦، ص٥٥٤.
[٢٥]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٢٦.
[٢٦]- جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١، ص٣٢٣.
[٢٧]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٥٤.
[٢٨]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٢٧ – ٢٨.
[٢٩]- عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، جـ٢، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٤٨١.
[٣٠]- بيير فرانسوا مورو، هوبز (فلسفة، علم، دين) ترجمة: اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٧، ص١٥- ١٦.
[٣١]- المصدر نفسه ، ص١٧.
[٣٢]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٥٤.
[٣٣]- عبد المنعم الحفني، مصدر سابق، ص١٤٨٢.
[٣٤]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٤٤.
[٣٥]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٥٥.
[٣٦]- عبد المنعم الحفني، مصدر سابق، ص١٤٨٢.
[٣٧]- المصدر نفسه، ص١٤٨٢.
[٣٨]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٥٢ – ٥٤.
[٣٩]- ليو شتراوس وجوزيف كروبس، تاريخ الفلسفة السياسية، جـ١، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٥٧٣.
[٤٠]- المصدر نفسه، ص٥٧٤.
[٤١]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٥٧ – ٥٨.
[٤٢]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص ٥٥٧.
[٤٣]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص ٥٩.
[٤٤]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٥٧.
[٤٥]- المصدر نفسه، ص٥٥٧.
[٤٦]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص٥٩.
[٤٧]- المصدر نفسه، ص ٦٠ – ٦٢.
[٤٨]- المصدر نفسه، ص٦٦ – ٦٧.
[٤٩]- ليو شتراوس، مصدر سابق، ص ٥٧٤.
[٥٠]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص ٦٩.
[٥١]- ليو شتراوس، مصدر سابق، ص٥٧٦.
[٥٢]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص ٧٦ – ٧٩.
[٥٣]- المصدر نفسه، ص٨٠.
[٥٤]- مجموعة مؤلفين ، موجز تاريخ الفلسفة، مصدر سابق، ص١٦٨.
[٥٥]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٥٨.
[٥٦]- اسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، ص١٩٠.
[٥٧]- محمد عبد المعز نصر، في النظريات والنظم السياسية، دار النهظة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص٧٠.

[٥٨] - اسماعيل زروخي، مصدر سابق، ص ١٩١.
[٥٩] - المصدر نفسه، ص١٩١.
[٦٠]- ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، ترجمة: ألياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت، ١٩٨٠، ص١٣٥.
[٦١]- الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة : فؤاد كامل وأخرون، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٨٣، ص٥٠٤.
[٦٢]- المصدر نفسه، ص٥٠٤.
[٦٣]- المصدر نفسه، ص٥٠٥.
[٦٤]- نبيل عبد الحميد، مصدر سابق، ص١١٩.
[٦٥]- عبد الرضا حسين الطعان، تاريخ الفكر السياسي الحديث، دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠، ص١٠٧.
[٦٦]- المصدر نفسه، ص١٠٨.
[٦٧]- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: علي مقلد، دار العالمية ، بيروت، ١٩٨٣، ٢٦٠.
[٦٨]- المصدر نفسه، ص٢٦٠.
[٦٩]- المصدر نفسه، ص٢٦١.
[٧٠]- جورج اسباين، تطور الفكر السياسي، جـ٣، ترجمة: راشد البراوي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١، ص٦٢٠.
[٧١]- محمد طه بدوي، مهات الافكار السياسية الحديثة وصداها في نظم الحكم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨، ص٥٠.
[٧٢]- عبد الرضا حسين الطعان، مصدر سابق، ص١١٠.
[٧٣]- المصدر نفسه، ص١١١.
[٧٤]- جورج اسباين، مصدر سابق، ص٦٢٨.
[٧٥]- محمد طه بدوي، مصدر سابق، ٥٠.
[٧٦]- المصدر نفسه، ص٥١.
[٧٧]- جون توشاك ، مصدر سابق، ص٢٦١.
[٧٨]- جان جاك شوفاليه، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة: ألياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٩، ص٦٢.
[٧٩]- جورج اسباين، مصدر سابق، ص٦٢٥.
[٨٠]- المصدر نفسه، ص ٦٣٠ – ٦٣١.
[٨١]- عبد الرضا حسين الطعان، مصدر سابق، ص ١١٧ – ١١٨.
[٨٢]- عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص٥٦٢.
[٨٣]- مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧، ص٨٠.
[٨٤]- ليو شتراوس، مصدر سابق، ص٥٨٢.
[٨٥]- جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، مصدر سابق، ص٣٢٧.
[٨٦]- المصدر نفسه، ص٣٢٨.
[٨٧]- مارسيل بريلو وجورج ليسكسه، تاريخ الفكر السياسي، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٠٧.
[٨٨]- المصدر نفسه، ص٢٠٨.
[٨٩]- محمد عبد المعز نصير، مصدر سابق، ص٧٢.
[٩٠] - فريال حسن خليفة، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٣١.
[٩١]- موسى إبراهيم ، المصدر السابق، ص٩٥-٩٦.
[٩٢]- محمد طه بديوي ، المصدر السابق، ص٥٥.
[٩٣]- عبد الرضا حسين الطعان، المصدر السابق، ص١٢١.
[٩٤]- جورج سباين، المصدر السابق، ص٦٣٦-٦٣٧.
[٩٥]- عبد الرضا حسين الطعان، المصدر السابق، ص١٢٦.
[٩٦]- مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص٨٤.
[٩٧]- موسى ابراهيم، المصدر السابق، ص٩٦.
[٩٨]- عبد الرضا حسين الطعان، المصدر السابق، ص١٢٧.
[٩٩]- المصدر نفسه، ص١٢٩.
[١٠٠]- مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص٨٥.
[١٠١]- عبد الرضا حسين الطعان، المصدر السابق، ص١٣٠.
[١٠٢]- المصدر نفسه، ص١٣١-١٣٣.
[١٠٣]- جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، المصدر السابق، ص٣٣٤.
[١٠٤]- بيير فرانسوا مورو، المصدر السابق، ص٨١-٨٤.
[١٠٥]- المصدر نفسه، ص٩٠-٩٨.

[١٠٦]- جورج سابين، المصدر السابق ، ص٦٤٠.
[١٠٧]- مهدي محفوظ، المصدر السابق، ص٨٥.
[١٠٨]- محمد طه بديوي، المصدر السابق، ص٦٢.
[١٠٩]- اسماعيل زروخي، المصدر السابق، ص١٩٨.

**المصادر**


١. ارنست بلوخ، فلسفة عصر النهضة، ترجمة: ألياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت، ١٩٨٠.

٢. اسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السياسية، دار الفجر، القاهرة، بدون سنة.

٣. بيير فرانسوا مورو، هوبز (فلسفة، علم، دين) ترجمة: اسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ٢٠٠٧.

٤. جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: علي مقلد، دار العالمية ، بيروت، ١٩٨٣.

٥. جان جاك شوفاليه، المؤلفات السياسية الكبرى، ترجمة: ألياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٩.

٦. جان جاك شوفالييه، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١.

٧. جلال يحيى، معلم التاريخ الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٦.

٨. جورج اسباين، تطور الفكر السياسي، جـ٣، ترجمة: راشد البراوي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١.

٩. روبرت بالمر، تاريخ العالم الحديث، جـ١، ترجمة محمود حسين الأمين، مؤسسة فرانكلين للنشر، بغداد– نيويورك، ١٩٦٤.

١٠. عبد الرحمن بديوي، موسوعة الفلسفة، جـ٢، مؤسسة ذو القربى ، أيران، ٢٠٠٦.

١١. عبد الرحيم عبد الرحمن، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، ط٣، ١٩٨٦.

١٢. عبد الرضا حسين الطعان، تاريخ الفكر السياسي الحديث، دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠.

١٣. عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، جـ٢، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.

١٤. فريال حسن خليفة، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥.

١٥. ليو شتراوس وجوزيف كروبس، تاريخ الفلسفة السياسية، جـ١، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٥.

١٦. مارسيل بريلو وجورج ليسكسه، تاريخ الفكر السياسي، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٣.

١٧. مجموعة مؤلفين، موجز تاريخ الفلسفة، ترجمة، توفيق سلوم، دار فارابي، بيروت، ١٩٨٩.

١٨. محمد طه بدوي، مهات الافكار السياسية الحديثة وصداها في نظم الحكم، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨.
١٩. محمد عبد المعز نصر، في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
٢٠. محمد محمد صالح، تاريخ أوربا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية (١٥٠٠- ١٧٨٩)، مطبعة الحافظ، بغداد، ١٩٨١.
٢١. مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧.
٢٢. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة : فؤاد كامل وأخرون، مكتبة النهضة ، بغداد، ١٩٨٣.
٢٣. موسى إبراهيم، معالم الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٩٤.
٢٤. ميلاد القرحي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، الجامعة المفتوحة، ليبيا، ١٩٩٥.
٢٥. نبيل عبد الحميد عبد الجبار، توماس هوبز ومذهبه في الأخلاق والسياسة، دار دجلة، عمان، ٢٠٠٧.

# Thomas Hobbes and his political philosophy Analytical study of his political philosophy and his theory of government

**Dr.. Saad Mohammed Ali Hamid**
**Mustansiriya University / College of Basic Education**

**Abstract**:

This study is an attempt to clarify and explain Hobbes' theory in the social contract and how to establish absolute rule based on the benefit of individuals. In this study we relied on the historical approach to monitor the reality in which this thinker lived, which influenced the intellectual trends, then the descriptive approach to explain and explain the political phenomena that Hobbes addressed in his theory, and then we moved to the analytical methodology to find out the most important ideas and conclusions brought by his theory .

**Key words**: Thomas Hobbes, Political Philosophy.